
كتابى
الحرب والسلام
القصة الخالدة لـ «تولستوى»
الجزء الثانى
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمى مراد



الحرب والسلام

القصة الخالدة لـ «تولستوى»

الجزء الثانى

- ٢١ -

لم يبق الآن فى قاعة الاستقبال إلا الأمير فاسيلى والأميرة الكبرى ، وقد انهمكا فى الحديث ، جالسين تحت صورة كاترين . وما ان ابصرا بيير ومعه مرافقته حتى لاذا بالصمت ، واخفت الأميرة شيئا — على ما توهم بيير — وغمغمت :

— انا لا اطيق مراى تلك المراة .

— وقال الامير فاسيلى لانا ميهالوفنا :

— لقد اعدت كاتيش الشاى فى حجرة الاستقبال الصغرى ، فاذهبى يا انا ميهالوفنا وتناولى هناك شيئا من الطعام وإلا خارت قواك .

ولكنه لم يقل شيئا لبيير ، بل اكتفى بالضغط على ذراعه بتعاطف ، ومضى بيير وانا ميها يلوفنا إلى حجرة الاستقبال الصغرى .

وقال لوران فى خفة مكبوحة وهو يرشف الشاى من فنجان من الصينى الرقيق ليس له مقبض ، وهو واقف فى حجرة الاستقبال الصغيرة الدائرية لصق مائدة محملة بادوات الشاى واطباق العشاء الباردة :

— ليس هناك شىء يضاهى فنجان الشاى الروسى الممتاز فى الإنعاش بعد ليلة مسهدة .

وكان جميع من فى دار الكونت بيزوهوف فى تلك الليلة قد تجمعوا — بقصد تجديد قواهم — حول هذه المائدة . وتذكر

بيير تمام التذكر حجرة الاستقبال الدائرية الصغيرة هذه ذات المرايا والمناضد الصغيرة . ذلك انه عندما كانت تقام حفلات راقصة صغيرة فى دار الكونت وكان بيير الذى لا يمكنه الرقص يحب الجلوس فى تلك الحجرة الصغيرة الملآنة بالمرايا ، ليرقب السيدات فى ثياب الرقص وقد زينت اكتافهن العارية باللآلى والالماسات ، وهن يعبرن تلك الحجرة لينظرن إلى انفسهن فى المرايا الجيدة الاضاءة التى كانت تعكس صورهن مرارا وتكرارا . اما الآن فهذه الحجرة نفسها خافتة الضوء ليست بها إلا شمعتان ، وفى منتصف الليل كانت ادوات الشاى واطباق العشاء مبعثرة فوق المناضد الصغيرة ، وكان اشخاص متنافرون فى ثياب عادية بسيطة جالسين إليها ، يتهامسون فيما بينهم ، وقد اعربوا فى كلمات لا تنسى عما هو جار فى تلك اللحظة ، وما ينتظر ان يحدث فى حجرة النوم .

ولم ياكل بيير شيئا مع انه شعر بميل شديد إلى ذلك ، بل راح يتلفت متسائلا نحو مرشدته ، فلاحظ انها خرجت مرة اخرى على اطراف اصابعها إلى قاعة الاستقبال الكبرى حيث كان الامير فاسيلى ما زال بصحبة الأميرة الكبرى . وخطر لبيير ان هذا ايضا جزء لا يتجزأ من الإجراءات . وبعد برهة قصيرة اقتفى اثرها ، فإذا بانا ميها يلوفنا واقفة بجوار الاميرة ، وهما يتكلمان فى آن واحد بنبرات مستثارة .

وقالت الاميرة التى كان واضحا انها فى مثل الثورة التى ابدتها عندما صفقت باب حجرتها :

— اسمحى لى يا سيدتى ان اعرف ما ينبغى وما لا ينبغى ان يعمل .

وكانت انا ميها يلوفنا تقول بدماثة ومحاولة للإقناع، وهى تسد الطريق إلى حجرة النوم لكى لا تسمح للأميرة بالمرور :

— ولكن يا اميرتى العزيزة .. افلا يكون ذلك شديد الوطأة على العم العزيز فى مثل هذه اللحظة التى يحتاج فيها للراحة ؟ إن الحديث فى الامور الدنيوية فى الوقت الذى تأهبت فيه روحه فعلا كى ..

وكان الأمير فاسيلى جالسا فى كرسى منخفض على طريقته المعتادة وقد رفع ساقا فوق الأخرى عاليا ، ووجنتاه تنتفضان بعنف ، حتى إذ هدأتا واسترختا بدتا مرتخيتين إلى اسفل ، إلا انه كان يبدو بمظهر من لا يعنيه نقاش السيدتين ، وهو يقول :

— كلا يا عزيزتى انا ميهالوفنا ، دعى كاتيش تتصرف كما ترى ، فانت تعرفين كم يحبها الكونت .

وقالت الاميرة مخاطبة الأمير فاسيلى ومشيرة إلى حافظة الأوراق المرصعة التى بيدها :

— بل إنى لا اعرف ماذا فى هذه الوثيقة ، فكل ما اعرفه ان الوصية الحقيقية فى المكتب، وان هذه مجرد ورقة منسية .

وحاولت ان تدور حول انا ميهايلوفنا ولكن انا طفرت طفرة اخرى صغيرة وسدت عليها الطريق من جديد . وقالت وهى تمسك بحافظة الأوراق بقوة اتضح منها انها لن تفلتها مرة اخرى :

— اعرف هذا يا اميرتى العزيزة الحلوة . ولكنى ارجوك واتوسل إليك ان ترحميه .

ولم تتكلم الاميرة ، بل كل ما طرق الاسماع هو صوت تجاذب الحافظة . ولم يكن ثمة شك فى انها لو تكلمت لما قالت شيئا فيه إطراء لأنا ميهايلوفنا التى شددت قبضتها على الحافظة ، ومع هذا احتفظ صوتها بكل رصانته وخفوته وهى تقول :

— تعال هنا يا بيير ، يا ولدى العزيز . ولست أظنه دخيلا ياعزيزى الأمير على اجتماعنا العائلى ..

وعندئذ صرخت الاميرة فجأة بصوت عال سمعه كل من فى حجرة الاستقبال وذعروا له :

— لماذا لا تقول شيئا يابن العم ؟ لماذا لا تتكلم وها هى فضولية قد اخذت على عاتقها ان تتدخل وتثير شجارا على عتبة حجرة رجل يحتضر ؟ يا للمخلوقة المتآمرة !

واخذت تجذب الحافظة بكل قوتها ، ولكن انا ميهايلوفنا خطت إلى الامام بضع خطوات كيلا تفلتها من يدها . فقال الأمير فاسيلى فى دهشة عاتبة وهو ينهض قائما :

— آه ما اسخف هذا . هيا افلتاها ، قلت لكما !

— فافلتتها الأميرة ، والتفت إلى المرأة الأخرى قائلا :

— وانت !

فلم تعره انا ميهايلوفنا التفاتا ، فقال :

— افلتيها قلت لك ! سآخذ الأمر كله على عاتقى . سأذهب واساله .. دعيها !

فقالت انا ميهايلوفنا :

— بل دعه انت يا امير يحظى بلحظة سلام بعد هذه الأسرار المقدسة .

والتفتت إلى الشاب الذى كان يحملق متعجبا وهو يدنو منهم فى وجه الأميرة المستثار وقد تخلت عن كل مقتضيات الوقار ومظاهره ، وفى وجنتى الأمير فاسيلى المنتفضتين ، وقالت له انا :

— قل لى يابيير . ما رايك انت ؟

— وقال الامير فاسيلى لأنا :

— تذكرى انك ستحاسبين على عواقب هذا كله ، فانت لا تدرين ما انت صانعة . وصرخت الأميرة وهى تثب على انا وتنتزع منها الحافظة .

— يا للمراة الوقحة !

واحنى الامير فاسيلى راسه ورفع كفيه إلى اعلى .

وفى هذه اللحظة انفتح فجاة الباب الرهيب الذى اطال بيير التحديق فيه ، وارتطم بالحائط ، وانبعثت منه الأميرة الاخرى وهى تعصر يديها وقالت فى ياس :

— ماذا بكما ؟ إنه يلفظ آخر انفاسه وانت تتركينى وحدى .

فاسقطت الأميرة الكبرى الحافظة ، وسرعان ما انقضت انا ميهايلوفنا فاستولت عليها ، وجرت داخلة الحجرة .

واستردت الأميرة الكبرى والأمير فاسيلى رباطة جاشهما واقتفيا اثرها . وبعد بضع دقائق خرجت الأميرة الكبرى مرة اخرى بوجه كالح جاف وهى تعض شفتها السفلى . وما ان وقع بصرها على بيير حتى اكتسى محياها بكراهية لا يمكن كبحها ، وقالت :

— اجل . الآن لك ان تزهو ، فقد حصلت على ما كنت تريد .

وانفجرت فى البكاء وقد اخفت وجهها فى منديلها ، وانطلقت إلى خارج القاعة . وكان ثانى من برزوا من حجرة النوم الامير فاسيلى الذى مشى مترنحا إلى الأريكة التى كان بيير جالسا عليها ، وغاص فيها مغطيا وجهه بيده . ولاحظ بيير انه شاحب وان فكه الأسفل كان يرتجف . وقال الأمير وهو يمسك بمرفق بيير ، وفى صوته صدق وضعف لم يكن يعهدهما بيير فيه من قبل ، وهو يقول :

— ما اكثر الخطايا والوان الخداع والغش التى نرتكبها وفيم هذا كله ؟ إنى لم ازل فى الخمسين من عمرى يا فتاى العزيز .. وهذا كله ينتهى بالموت . الا ما ابشع الموت !

وانفجر باكيا .

وكانت انا ميهايلوفنا آخر من خرج ، واقتربت من بيير بخطى خافتة ووئيدة وقالت له :

— بيير !

فنظر بيير إليها متسائلا ، فقبلت جبينه وبللته بدموعها . وظلت برهة لا تتكلم ، ثم قالت :

ـ لقد انتهى !

فرمقها بيير من فوق نظارته ، فقالت :

ـ تعال . سأعود بك . حاول ان تبكى ، فلا شىء يريح كالدموع .

وقادته إلى حجرة الاستقبال المعتمة وسره الا يتمكن احد من رؤية محياه . وهناك تركته انا ميهايلوفنا ، ولما عادت وجدته غارقا فى النوم وذراعه تحت رأسه .

وفى الصباح التالى قالت انا ميهايلوفنا لبيير :

ـ نعم يا ولدى العزيز ، إنها لخسارة فادحة لنا جميعا . ولست اتكلم عنك . ولكن الرب سيقويك فانت شاب . وها قد صرت الآن رب ثروة طائلة فيما ارجو . فالوصية لم تفض بعد . وانا اعرفك تمام المعرفة واعرف ان هذا لن يطيش صوابك . ولكن هذه الثروة ستلقى عليك تبعات وينبغى أن تكون رجلا .

ولم يقل بيير شيئا . فاستطردت :

ـ وربما قلت لك فيما بعد يا ولدى العزيز إننى لو لم اكن هنا فالله اعلم ماذا كان من الممكن ان يحدث . وكما تعلم كان عمى وعدنى امس الاول مباشرة انه سوف لا ينسى بوريس . ولكن الوقت لم يتسع له . ولذا اتمنى يا صديقى العزيز ان تنفذ انت رغبة ابيك .

ولم يفقه بيير كلمة واحدة ، واحمر وجهه خجلا ونظر ببلاهة إلى انا ميها يلوفنا التى تركته وركبت إلى دار آل روستوف حيث اوت إلى فراشها . ولما استيقظت فى الصباح افضت إلى آل روستوف وجميع معارفها بتفصيلات وفاة

الكونت بيزوهوف ، وقالت أن الكونت مات على نحو ما كانت تحب هى شخصيا ان تموت . فقد كانت وفاته مؤثرة . وتتصف بالسمو ، وان اللقاء بين الأب والأبن كان مؤثرا جدا حتى انها لا تستطيع تذكره من غير ان تخنقها العبرات ، وهى لا تدرى أيهما كان أنبل من الآخر فى تلك اللحظات الرهيبة . اكان هو الأب الذى تذكر كل شىء وكل إنسان فى ساعة النهاية تلك ، فقال لابنه كلمات مؤثرة جدا ، أم هو بيير الذى كان مرآه يمزق نياط الفؤاد ، فما كان اشد انسحاقه وإن حاول جهده أن يخفى حزنه كيلا يؤثر على نفسية ابيه المحتضر . وقالت :

ـ وهذا كله اليم . ولكنه لا يخلو من فائدة للمرء . فمما يقوى العزم ويرفع الروح المعنوية ان نرى رجالا كالكونت الشيخ وابنه الفاضل .

وحدثتهم «انا» عن افاعيل الاميرة والأمير فاسيلى . ولكن فى طى الكتمان الشديد . وبصوت هامس يفيض استهجانا .

* * *

ـ ٢٢ ـ

وفى « بليك هيلز » ـ ضيعة الأمير نيقولاى اندريفتش بولكونسكى ـ كان الجميع يتوقعون وصول الأمير اندريه وزوجته فى كل يوم . ولكن هذا التوقع لم يعرقل الروتين اليومى المنتظم الذى يتبعه اعضاء بيت الأمير الشيخ . فقد

كان الأمير نيقولاى اندريفتش ذات يوم القائد العام للجيش ، وعرفه الناس فى الأوساط الراقية بلقب « الملك البروسى » ثم نفى إلى ضيعته فى عهد القيصر بول . وظل فى بليك هيلز منذ ذلك الحين مع كريمته الأميرة ماريا ومرافقتها الآنسة «بوربين» . بل إنه فى عهد القيصر الجديد الذى سمح له بالعودة إلى العاصمة لم يغادر قط داره فى الريف قائلا إنه إن اراد ان يراه ففى وسعه ان يقطع المائة وخمسين فرسخا من موسكو إلى بليك هيلز ، اما هو من جانبه فلا حاجة به لأى احد او اى شىء . وكان من عادته ان يقول إن رذائل البشر كلها ليس لها إلا مصدران ، الا وهما الكسل والتطير . وانه لا وجود إلا لفضيلتين هما النشاط والذكاء . وقد تولى بنفسه تعليم وتربية كريمته . ولكى ينمى فيها هاتين الصفتين الهامتين ظل يعطيها دروسا فى الجبر والهندسة إلى ان بلغت العشرين من عمرها . ورسم لها خريطة حياتها كلها بحيث تظل مشغولة طول الوقت . بل إنه هو شخصيا كان دائم الاشتغال بكتابة مذكراته . وحل مسائل فى الرياضيات العليا ، وابداع علب النشوق بمخرطته ، والعمل فى بستانه او الإشراف على إقامة الأبنية باستمرار فى ضيعته . ولما كان لابد لانجاز الاعمال المختلفة من التزام نظام مطرد ، لذا راعى هذا الالتزام إلى اقصى درجة فى اسلوب حياته : فكانت وجباته تقدم له بطريقة ثابتة لا تتغير ، لا فى ساعة معينة فحسب . بل وفى دقيقة محددة ايضا . وكان الكونت صارما شديد التدقيق مع كل من حوله بدءا بكريمته حتى خدمه . ولئن لم يكن قاسيا

إلا انه يوحى دائما بدرجة من الاحترام والمهابة لا يحظى بمثلها اقسى الرجال . ومع انه الآن فى قائمة التقاعد ، ولا نفوذ له إطلاقا فى الدوائر السياسية ؛ إلا ان كل مسئول كبير فى الإقليم الذى توجد به ضيعة الأمير كان يرى لزاما عليه أن يزوره ، وعليه ان يتحمل ما يتحمله المهندس المعمارى والبستانى والأميرة ماريا من مشقة الانتظار إلى ان تحين الساعة المعهودة التى تعود الأمير دائما ان يهل فيها بطلعته على قاعة الانتظار العالية السقف . وكان كل من فيها يشعر بنفس الاجلال ، بل والهيبة ، عندما ينفتح باب المكتب الشديد العلو وتبرز منه قامة هذا الشيخ الصغيرة ، بباروكة شعره المكسوة بالمساحيق ، ويديه الذابلتين ، وحاجبيه الأشيبين الكثين اللذين كانا عندما يقطب جبينه يحجبان وميض عينيه الثاقبتين الثابتتى النظرات .

وفى اليوم الذى توقعوا فيه وصول العروسين الشابين توجهت الأميرة ماريا كالعادة فى الوقت المحدد من الصباح إلى قاعة الانتظار لتحيى اباها ، وفى رعدة خوف رسمت على وجهها الصليب وراحت تتضرع إلى الله بصلاة صامتة ، فهى فى كل يوم تذهب إلى والدها على هذا النحو ، وفى كل يوم تضرع إلى الله ان ينقضى لقاؤها بأبيها فى ذلك النهار على خير . ومن خلال باب المكتب ترامت إليها اصوات المخرطة المنتظمة . وامسكت الأميرة بالباب فى استحياء ، وفتحته بخفوت ويسر ، ووقفت متخشبة فى فرجته ، وكان الامير مشغولا بالعمل على مخرطته ، فالتفت وراءه ثم واصل عمله .



كان الأمير مشغولاً بالعمل على مخرطته ، فالتفت وراءه ثم واصل عمله ..

وكانت الحجرة مكتظة بأشياء من الواضح أنه دائم الاستخدام لها . فعلى المنضدة الكبيرة كتب وخطط ، وهناك خزائن كتب تتدلى المفاتيح من أبوابها الزجاجية . وهناك منضدة عالية ليكتب عليها الأمير وهو قائم ، وفوقها دفتر مخطوطات كبير مفتوح ، وهناك مخرطة النجارة وقد رصت عليها الأدوات وانتشرت نشارة الخشب . وذلك كله يوحى بانشطة متنوعة متواصلة منتظمة . أما حركات قدم الأمير الصغيرة فى حذائه التترى المطرز بالفضة ، وضغط يده النحيلة المعروقة الثابتة فتدل على ان هذا الشيخ لم يزل قوى الإرادة والأعصاب . وبعد عدة دورات أخرى رفع يده عن « بدال » المخرطة ، ومسح الفارة ثم اسقطها فى جراب جلدى معلق بالمخرطة ، ثم اتجه صوب المنضدة ونادى كريمته . ولم يحدث قط ان منح ابنه او بنته البركة المسيحية المعتادة ، ولذا اكتفى بأن قدم لها خده الذى لم يحلقه بعد وقال لها بصرامة — وفى حنان شديد فى الوقت نفسه — وهو يشملها بنظره :

— هل انت على ما يرام ؟ .. عظيم ! اجلسى إذن !

وتناول كراسة تمرينات هندسية مكتوبة بخط يده ، وجذب كرسيه بساقه ثم قال بسرعة ، وهو يفتح الصفحة ويشير بظفره الخشن إلى إحدى الفقرات :

— لباكر .. انتظرى . هاك خطابا لك !

وأخرج من جيب ملقى على المنضدة مظروفا عليه كتابة بخط نسوى ، ووضعه فوق المنضدة ، فاحمر وجه الأميرة

لمرأى الخطاب، وتناولته بسرعة واكبت عليه ، فسألها الأمير ، وقد افترت ابتسامته الباردة عن اسنانه الصفراء التى لم تزل قوية :

— من إلويز ؟

فأجابته الأميرة وهى ترمقه باسمة فى حياء :

— اجل من جولى . .

فقال الأمير بصرامة :

— سأسمح بمرور خطابين آخرين ، أما الثالث فسوف اقراه . فإنى اخشى انكما تكتبان الكثير من اللغو . اجل سوف اقرأ الثالث .

فازدادت حمرة وجه الأميرة وقالت وهى تمد إليه الخطاب :

— بل اقرا هذا يا ابى .

فصاح الأمير باقتضاب وهو يدفع عنه الخطاب :

— بل سأقرأ الثالث . قلت الثالث !

واتكأ بمرفقه على المنضدة ، وجذب إليه كتاب الأشكال الهندسية وانحنى عليه بجوار وجهها مباشرة ، واضعا إحدى ذراعيه على ظهر الكرسى الذى تجلس فوقه ، بحيث احست الأميرة انها محاصرة بالرائحة الحريفة التى تفوح من الشيخوخة ومن الطباق معا ، وهى الرائحة التى اقترنت فى ذهنها دائما بوالدها ، وقال :

— انظرى يا سيدتى . هذه المثلثات متساوية : فالزاوية ا ب جـ .

فنظرت الأميرة فى تقديس إلى عينى ابيها المشعتين إلى جوارها مباشرة . وغطت الحمرة وجهها كله ، وكان جليا انها لم تفقه كلمة واحدة مما قال ، وحال فزعها دون فهمها كل ما اعقب هذه العبارة من الشرح ، رغم وضوحه الشديد ، وسيان كان ذلك خطأ المعلم أم خطأ التلميذة . ففى كل يوم يتكرر هذا المشهد . ونامت عينا الأميرة فلم تستطع ان ترى او تسمع شيئا ، ولم تستطع ان تشعر إلا بوجه أبيها الجاف الصارم بقربها ، تصدر عنه انفاسه ورائحته ، ولم تعد تفكر فى شىء اللهم إلا فى النجاة بأسرع وقت من المكتب لتحاول حل المسألة على سجيتها فى حجرتها . وغضب الشيخ ، وبصوت مرتفع ازاح كرسيا ثم قربه مرة اخرى محاولا السيطرة على نفسه كيلا ينفجر غضبه . وكان فى كل مرة تقريبا ينفجر غضبه ويوبخها ويرمى الكتاب بعيدا . واجابت الأميرة احد الأسئلة فأخطأت ، فصاح الأمير وهو يدفع الكتاب ويشيح عنها بحدة :

— ما اغباكِ !

ولكنه لم يلبث ان نهض قائما وتمشى فى الحجرة ويده على شعر الأميرة ، ثم جلس . واقترب من المنضدة وواصل الشرح . وقال عندما تناولت الكتاب والكراسة وهمت بمغادرة الحجرة :

— لا فائدة ! الرياضيات مادة عظيمة يا سيدتى . وانا لن اسمح ان تكونى على شاكلة آنساتنا المألوفات . تذرعى بالصبر ولسوف تحبينها !

وربت على خدها واردف :

— لأنها ستجرف اللغو كله من دماغك !

واوشكت ان تنصرف ، فاستوقفها بإيماءة منه وتناول كتابا لم تفض اوراقه من فوق منضدته العالية وقال لها :

لقد ارسلت إليك صاحبتك إلويز هذا الكتاب ايضا « مفتاح التصوف » . كتاب دينى . ولكنى لا اتدخل فى عقيدة اى إنسان . وقد نظرت فيه . فخذيه وانصرفى ! وربت على كتفها واقفل بنفسه الباب وراءها .

فعادت الاميرة ماريا إلى حجرتها الخاصة وعلى محياها اكتئاب وفزع قلما فارقاها ، مما جعل وجهها الخالى من الوسامة اقل وسامة مما هو ، وجلست إلى مكتبها الذى تعلوه صور صغيرة وكتب ومخطوطات . فهى على عكس ابيها فى العداء للترتيب . ووضعت كراسة الهندسة وفتحت الخطاب بلهفة ، فهو من اعز صديقاتها منذ الطفولة ، الا وهى جولى كاراجين التى كانت حاضرة فى حفل آل روستوف .

وكان خطاب جولى بالفرنسية :

« صديقتى العزيزة الممتازة — الا ما اوجع الفراق وابشعه ! انا التى اقول لنفسى إن نصف كيانى وسعادتى يتمثل فيك انت ، فعلى رغم المسافة التى تفصلنا فقلوبنا

توحد بينها روابط خفية . إلا ان قلبى يتمرد على قضائه ، ومهما كانت اللذائذ والمسليات التى تحيط بى إلا انى لا استطيع ان اقهر حزنا خفيا استشعره فى اعماق فؤادى منذ افترقنا . فلماذا نحن لسنا معا كما كنا هذا الصيف فى مكتبك الكبير ، على الأريكة الزرقاء التى شهدت نجوانا ؟ كما لا يسعنى الآن — كما وسعنى منذ ثلاثة اشهر — ان استمد قوة معنوية من نظراتك الهادئة اللطيفة ، التى احببتها جدا ويخيل إلى انى اراها امامى وانا اكتب إليك » .

ولما وصلت الأميرة إلى هذه الفقرة تنهدت والتفتت تنظر إلى المرآة العمودية عن يمينها ، فعكست المرآة قامة ضعيفة خالية من الرشاقة ووجها نحيلا . وكانت عيناها الحزينتان دائما تنظران فى هذه اللحظة إلى نفسها فى المرآة وهما تفيضان بيأس شديد . وحدثت نفسها بان صديقتها تتملقها ، واشاحت بوجهها وواصلت القراءة . بيد ان جولى لم تكن تتملق صديقتها ، فعينا الاميرة الواسعتان العميقتان المشعتان (فثمة اشعة من نور دافىء حنون تنبعث احيانا من هاتين العينين فى دفقات) جميلتان جدا بالفعل ، حتى انهما برغم خلو وجهها كله من الوسامة تنبعث منهما جاذبية اقوى اثرا من الجمال . ولكن الاميرة لم تر قط تعبير عينيها الجميل ، ذلك التعبير الذى يطل منهما عندما لا تفكر فى نفسها . فهى كأى إنسان يكتسى وجهها تعبيرا متكلفا قبيحا غير طبيعى متى نظرت فى المرآة .

وواصلت القراءة :

« لا حديث لموسكو بأسرها إلا عن الحرب . واحد اخوى بالخارج ، اما الآخر ففى الحرس القيصرى الذى يتأهب للزحف إلى الجبهة . وقد غادر إمبراطورنا العزيز بطرسبرج ويقول الناس إنه عازم على تعريض شخصه الغالي لمخاطر الحرب . فالله اسأل ان تكون هزيمة الوحش الكورسيكى الذى يدمر سلام اوربا على يد الملاك الذى شاءت مراحم العلى القدير ان يجعله ملكا علينا . وبصرف النظر عن اخوى اجد هذه الحرب قد حرمتنى من اعز ارتباطاتى القلبية الا وهو الشاب نيقولا روستوف الذى لم تطق حماسته الإخلاد للسكينة فترك الجامعة لينضم إلى الجيش . واعترف لك يا عزيزتى مارى ان رحيله ليلتحق بالجيش رغم حداثة سنه سبب لى اسى شديدا . فهذا الشاب الذى حدثتك عنه فى الصيف فيه الكثير جدا من النبل ونضارة الشباب ، مما يندر ان نصادفه فى زماننا هذا بين من هم اكبر منه وبلغوا سن العشرين . ففيه قبل كل شىء صراحة كبيرة وذكاء فؤاد . كم هو نقى وشاعرى . لذا كانت معرفتى به على قصر مدتها من اعز المباهج إلى قلبى الذى تعذب كثيرا . وسأخبرك يوما ما عن لقاء الوداع بيننا وما قاله كل منا للآخر عند الفراق . اما الآن فهذا كله لم يزل غضا فى نفسى حتى اننى لا استطيع التعبير عنه . آه يا صديقتى العزيزة ! كم اغبطك لأنك لم تعرفى هذه المسرات وهذه الآلام الموجعة للغاية . وانت سعيدة الحظ لأن الآلام عادة هى الاقوى ! وانا اعرف تمام المعرفة

ان الكونت نيقولا احدث سنا من ان يغدو لى اكثر من صديق ، ولكن هذه الصداقة العذبة وهذه الشاعرية التى تحف بصلتنا الحميمة قد اشبعت حاجة من حاجات قلبى . والآن حسبنا حديثا عن هذا . فالنبأ البارز الذى هز كل موسكو هو وفاة الكونت بيزوهوف الشيخ والحديث عن ميراثه . تصورى ان الأميرات الثلاث لم تظفرن بشىء تقريبا ، وكذلك الأمير فاسيلى لم يظفر بشىء ، وان كل شىء قد ترك للمسيو بيير الذى تم الاعتراف به ابنا شرعيا فوق هذا كله . وبذلك صار الكونت بيزوهوف صاحب اضخم ثروة فى روسيا . والناس يقولون إن الأمير فاسيلى اساء السلوك جدا فى جميع هذه الامور وإنه عاد إلى بطرسبرج محبطا اشد الاحباط .

« وانا اعترف ان إدراكى جد قليل لكل هذه التفصيلات عن الهبات والمنح والوصايا . وكل ما اعرفه انه ما دام الشاب الذى كنا نعرفه جميعا باسم المسيو بيير لا اكثر ، قد صار الكونت بيزوهوف وصاحب ثروة من اكبر الثروات فى روسيا فما اشد اهتمامى بأن الاحظ ما يطرأ من التغير فى اللهجة والسلوك لدى امهات الفتيات اللواتى فى سن الزواج . بل ولدى اولئك السيدات انفسهن بإزاء هذا الشخص الذى اصارحك بانه بدا لى دائما مخلوقا تافها . والناس قد تسلوا فى العامين الماضيين بتزويجى من رجال لا اعرفهم ، وها هم الآن يجعلون منى فى موسكو الكونتس بيزوهوف . ولكنى واثقة انك تشعرين انه لا رغبة لى فى هذا . وبمناسبة الزواج اتعرفين ان العمة الابدية « انا ميهايلوفنا » صرحت لى فى

طى الكتمان الشديد ان هناك مشروع زواج لك . وهذا
العريس ليس إلا ابن الأمير فاسيلى « اناتول » الذى يريدون
تزويجه من فتاة غنية وراقية . وقد وقع اختيار اقاربه عليك .
ولست ادرى ماذا سيكون رايك . ولكنى رايت من واجبى ان
اخبرك سلفا . ويقال إنه وسيم جدا وشديد الجموح . وهذا
كل ما امكننى ان اعرفه عنه .

« ولكن كفانا ثرثرة . فها انا اختم صحيفتى الثانية
وماما تبعث فى طلبى كى نذهب ونتعشى لدى آل إبركسين .
طالعى كتاب التصوف الذى ابعث به إليك فقد اثار هنا اهتماما
كبيرا . ومع ان فى هذا الكتاب امورا يصعب على افهامنا
البشرية استيعابها إلا انه كتاب مرموق تفيد قراءته الروح
وتهدئها وتسمو بها . وداعا . احتراماتى إلى والدك وتحياتى
إلى الآنسة بوريين . واعانقك عناق الحب — جولى .

« حاشية : ابلغينى انباء اخيك وعروسه الصغيرة
الفاتنة » .

وفكرت الاميرة ماريا لدقيقة وهى تبتسم حالمة (واضاء
محياها وشعت عيناها فتغير تماما تعبير سحنتها) ثم نهضت
فجاة واتجهت إلى المكتب بخطى ثقيلة واستخرجت منه ورقة
وبدات يدها تتحرك فوقها بسرعة ، وكتبت الرسالة التالية :

« صديقتى العزيزة الممتازة — سرنى كثيرا خطابك
المؤرخ ١٣ الجارى ، فانت إذن ما زلت تحبيننى يا جولياى
الشاعرية . والبعاد لم يحدث فيك اثره المعهود . واراك
تشتكين عذاب هذا البعاد ، وماذا عساى اقول انا فيه ،
وانا المحرومة من كل اعزائى ؟ ولولا تعزية الدين لنا لكانت

الحياة جد حزينة ، وما الذى يحملك على الاعتقاد بانى الومك
حين تخبريننى باعزازك لذلك الشاب ؟ فانا فى هذه الامور
لست قاسية الا على نفسى ، فانا افهم هذه المشاعر لدى
الناس ، ولئن لم احسها قط فانى لا ادينها وإن لم احبذها ،
وكل ما هناك انه يخيل لى ان المحبة المسيحية ، محبة الأصدقاء
ومحبة الاعداء ، اسمى وارق واجمل من كل تلك المشاعر التى
يمكن ان تستلهمها شابة شاعرية محبة مثلك من عينى شاب .
اما انباء وفاة الكونت بيزوهوف فقد بلغتنا قبل وصول خطابك
وتاثر بها والدى جدا ، وقال ان الكونت كان الممثل قبل الأخير
للجيل العظيم ، وان الدور قد حل عليه الآن ، ولكنه سيبذل
جهده كى يؤخر دوره قدر الإمكان . واسال الله ان يجنبنا هذه
الكارثة الرهيبة . ولا يمكننى ان اوافقك على رايك فى بيير الذى
عرفته طفلا . فقد بدا لى دائما انه ذو قلب ممتاز ، وهذه هى
الصفة الاجدر بالتقدير عندما يتحلى بها الناس . اما عن
ميراثه وعن مسلك الأمير فاسيلى بصدده ، فذلك امر مؤسف
لكليهما . فمخلصنا الالهى يا عزيزتى يقول إن مرور الجمل
من ثقب الابرة ايسر من دخول الغنى ملكوت السماء . وهى
حقيقة مروعة . وانى لأرثى للأمير فاسيلى ، ولكننى اشد رثاء
لبيير ، فهو فى مقتبل الشباب وها هو قد اثقل بالثروة الطائلة
فما اكثر المغريات التى سوف يتعرض لها ! ولو سئلت ما هى
اعظم رغباتى الدنيوية ، لقلت ان اكون افقر من افقر
المتسولين ! والف شكر يا عزيزتى للكتاب الذى ارسلته لى
والذى يثير اكبر ضجة فى مدينتك . وما دمت تقولين انه من
بين محتوياته الحسنة الكثيرة توجد مسائل لا يستطيع عقلنا

البشرى ادراكها . لذا ارى انه غير مجد ان اشغل نفسى بقراءة كتاب مستعصى على الفهم ، لانه سيكون عندئذ بلا فائدة . والحق انى لم استطع قط ان افهم لماذا يعنى بعض الناس انفسهم بدراسة كتب التصوف التى توقظ الريب وتلهب الخيال وتدفعهم إلى مبالغات مضادة للبساطة المسيحية . فلنقرا اعمال الرسل والاناجيل . ولنمتنع عن التغلغل إلى غوامض الأسرار المكنونة فيها ، إذ كيف يجوز لنا نحن الخطاة ان نصبو إلى استكناه اسرار العناية الآلهية ونحن اسرى هذا الجسد الذى يقف حائلا بيننا وبين ما هو ابدى ؟ ان الأولى بنا ان نقتصر على دراسة تلك المبادىء السامية التى خلفها لنا مخلصنا الالهى لتكون مرشدنا فى سلوكنا ها هنا . ولنجتهد فى تحريها والاقتداء بها ، ولنقنع انفسنا اننا كلما قل ارتكاننا على إدراكنا البشرى الضعيف كان ذلك احرى برضا الله الذى يرفض كل معرفة لم تصدر منه هو ، وانه كلما تجنبنا الغوص فيما شاءت إرادته ان تخفيه عن مداركنا ، كان سبحانه اسرع إلى الكشف لناعنه بروحه القدس .

« والدى لم يفاتحنى فى امر هذا الخاطب . ولكنه قال لى فقط انه تلقى رسالة من الأمير فاسيلى وانه يتوقع حضوره لزيارته . واما بخصوص مشروع الزواج الخاص بى ، فانى اقول لك يا صديقتى العزيزة ان الزواج فى رأيى نظام قدسى لابد لنا من الخضوع له . ومهما كان الأمر مؤلما لى ، فانى ان شاء العلى القدير ان يفرض على واجبات الزوجة والأم . فسوف احاول النهوض بها باقصى ما استطيع من الاخلاص .

من غير ان اعنى نفسى بتفحص مشاعرى تجاه من اراد الله ان يكون زوجا لى .

« تلقيت خطابا من اخى يعلن فيه عن قدومه إلى بليك هيلز ومعه زوجته . وستكون سعادتنا بهما قصيرة الأمد ، لأنه سيفارقنا سريعا ليلحق بهذه الحرب التعسة التى جرونا إليها ، والله اعلم كيف حدث هذا ولماذا ؟ وليس الحديث العام عن الحرب سائدا عندكم فقط حيث الأعمال وبؤرة المجتمع ، بل هنا ايضا فى أوساط الفلاحين والقرويين حيث هدوء الطبيعة الذى يتخيله دائما سكان المدن ، تتردد إشاعات الحرب ويشعر الناس بآلامها . وليس لأبى حديث إلا عن الزحوف ، والزحوف المضادة ، وهى أمور لا أفقه فيها شيئا . وامس الأول كنت اتمشى فى شارع القرية فشهدت منظرا يعتصر القلب .. منظر قافلة من المجندين الذين حشدوهم من منطقتنا ، وجار ارسالهم إلى الجيش . وليتك رايت حالة الامهات والزوجات واطفال هؤلاء المجندين . وسمعت اصوات النحيب الصادرة من الجانبين . فكأنما نسيت الإنسانية قوانين فاديها المقدس الذى بشر بالمحبة وغفران الاساءات ، فاذا الناس الآن يجعلون من قتل بعضهم بعضا اعظم آيات المباهاة .

« وداعا يا صديقتى الطيبة ، ولتشملك رعاية فادينا وامه القديسة — مارى » .

وقالت الآنسة بوريين بصوتها العذب الفرنسى اللكنة :

— اراك تهمين بارسال خطاباتك . وقد فرغت ايضا

من رسالتى إلى امى المسكينة . وادخلت متهللة إلى عالم الأميرة ماريا السوداوى الواجم جوا من الخفة والنزق والرضا عن الذات ، واردفت بصوت خافت ، وكأنها تستمتع بعذوبة جرسه :

ـ يجب على يا اميرة ان انبهك إلى ان الأمير احتد فى مشادة مع ميهائيل ايفانوف . وقد انحرف مزاجه جدا واشتد نكده . فاعدى نفسك لذلك .

فاجابتها الأميرة ماريا :

ـ لقد رجوتك مرارا يا عزيزتى الا تخبرينى سلفا بمزاج ابى ، فانا لا اسمح لنفسى ان انتقده ولا اسمح لغيرى بهذا ايضا .

ونظرت الأميرة إلى ساعتها وإذا بها قد تأخرت خمس دقائق عن الموعد المحدد لتدريباتها على البيانو العتيق الطراز ، فتوجهت مرتاعة إلى قاعة الارائك ، فبمقتضى خريطتها اليومية كان الأمير يستريح ما بين الثانية عشرة والثانية بينما الاميرة تتدرب على هذه الآلة .

- ٢٣ -

كان الخادم الاشيب الشعر جالسا فى قاعة الانتظار مغفيا ومصغيا فى الوقت نفسه لغطيط الأمير فى مكتبه الواسع . ومن اقاصى الدار كانت تفد من خلال الأبواب المغلقة اصوات نقرات صعبة من إحدى السوناتات «الداسيك» وهى تتكرر عشرين مرة تباعا .

وفى تلك اللحظة وقفت امام الدرج عربة كبيرة واخرى صغيرة ، ونزل الامير اندريه من العربة الكبيرة واعان زوجته الصغيرة على النزول منها وتركها تدلف إلى الدار قبله . وطفر تيهون الاشيب إلى باب قاعة الانتظار وقال له همسا إن الأمير نائم ، واسرع باغلاق الباب . فقد كان تيهون يعلم انه ما من حدث خارق للعادة ـ حتى ولو كان وصول ابنه ـ يمكن ان يباح له اقتحام الروتين اليومى . وكان الأمير اندريه عليما بهذه الحقيقة علم تيهون بها ، فنظر إلى ساعته كانما ليتأكد من ان عادات ابيه لم تتغير اثناء غيابه عنه ، واطمأن إلى انها لم تزل على عهده بها ، فالتفت إلى زوجته قائلا :

ـ سيصحو بعد عشرين دقيقة . لنذهب الآن إلى مارى .

وكانت الاميرة الصغيرة قد سمنت قليلا فى هذه الفترة ، ولكن شفتها العليا القصيرة التى يغطيها شارب خفيف جدا ارتفعت فى مرح وفتنة كالعادة عندما تكلمت ، قائلة لزوجها :

ـ وى ! انه لقصر حقيقى ! هيا بنا ! اسرع !

وهى تنظر حولها بنفس التعبيرات التى يزجى بها الناس التهانى إلى رب الدار فى حفل راقص . ونظرت وهى تتلفت حولها باسمة إلى تيهون وإلى زوجها ، وإلى الخادم الذى تقدمهما :

ـ اهذه مارى التى تتدرب ؟ أسرع بنا إليها ، كى نفاجئها !

وتبعها الأمير اندريه فى دماثة وامتثال ، وقال عند مروره بالخادم الشيخ الذى قبل يده :

ـ لقد شخت ياتيهون . .

وقبل ان تبلغا القاعة التى تنبعث منها الأصوات برزت المراة الفرنسية الجميلة الشقراء الشعر من باب جانبى ، وبدت الآنسة بوريين مستطارة اللب من السرور وصاحت :

ـ يا لها من مفاجأة سارة للأميرة . اخيرا ! لابد ان اخبرها . .

فقالت الاميرة الصغيرة وهى تقبلها :

ـ كلا ! ارجوك الا تفعلى . . انت الآنسة بوريين . إنى اعرفك سلفا واعرف صداقة شقيقة زوجى لك . إنها لا تتوقع قدومنا !

واتجهوا جميعا إلى باب قاعة الارانك التى تصدر عنها نغمات نفس الفقرة المتكررة مرارا . ووقف الأمير اندريه ثابتا فىمكانه ومقطبا كأنه يتوقع شيئا غير سار . ودخلت الأميرة الصغيرة . فتوقفت أنغام الفقرة المعزوفة فى منتصفها ، وسمع صيحة دهشة ، ثم وقع خطوات الأميرة ماريا وصوت قبلات . ولما دخل الأمير اندريه الفى السيدتين متعانقتين وكل منهما تنكب بشفتيها فى حرارة على أول موضع تصادفه من وجه الاخرى . لم تكونا قد تقابلتا من قبل الا برهة قصيرة فى حفل زفاف الامير اندريه . وكانت الآنسة بوريين واقفة بقربهما ، ضاغطة بيديها على قلبها مبتسمة فى ولاء وعلى اهبة البكاء



ولما دخل الأمير أندريه ألفى السيدتين متعانقتين وكل منهما تنكب بشفتيها فى حرارة على أول موضع تصادفه من وجه الأخرى ..

والضحك . فهز الأمير اندريه كتفيه وتجهم كما يتجهم محبو الموسيقى عند سماع نغمة نشاز . واخيرا افلتت كل منهما الاخرى . بيد انهما لم تلبثا ان تعانقتا من جديد كأنهما تخشيان التقصير ، وراحت كل منهما تقبل يد الاخرى التى تحاول جذب يدها ، ثم انصرفتا إلى تقبيل الوجوه . ثم ادهشتا الأمير اندريه بأن انفجرت كلتاهما منتحبة وهما تعاودان القبلات . وبكت الآنسة بوريين ايضا . وبدا الحرج الواضح على الأمير اندريه ، اما المراتان فكان واضحا ان البكاء فى نظرهما امر طبيعى جدا ، وما كان ليخطر لهما ببال ابدا ان يتم لقاؤهما بغير دموع .

وشرعت السيدتان تقولان فى نفس واحد وهما تضحكان :

ــ آه يا عزيزتى ! .. آه يا عزيزتى ! لقد رأيت حلما ليلة امس . إذن فأنت لم تتوقعى حضورنا ؟ اوه يا مارى ! لقد نحفت بعض الشىء .

ــ وانت تبدين فى صحة احسن .

وقالت الآنسة بوريين :

ــ لقد عرفت الاميرة على الفور .

وصاحت الأميرة ماريا :

ــ كان ذهنى خاليا تماما .. آه يا اندريه ، انى لم ارك ..

وقبل كل من الامير اندريه واخته يدى الآخر وقال لها انها لم تزل طفلة بكاءة كالعهد بها دائما . والتفتت الأميرة ماريا إلى اخيها ، ومن خلال دموعها استقرت نظرات عينيها

الواسعتين اللتين اكتسبتا جمالا فى هذه اللحظة على وجه الأمير اندريه بكل الحب والحنان . اما الأميرة الصغيرة فلم تكف عن الكلام وشفتها العليا القصيرة ذات الزغب الخفيف تواصل الارتفاع والهبوط لتلتقى بشفتها السفلى الوردية عند الاقتضاء ، لكى ترتفع عنها مرة اخرى فى ابتسامة تتلألأ بها عيناها واسنانها .وروت حادثا وقع لهما على تل سباسكو ، وكان من الممكن ان يضر بها فى « حالتها الراهنة » ، وبعد ذلك مباشرة قالت انها تركت كل ثيابها فى بطرسبرج ، والله اعلم ماذا يمكن ان ترتدى ها هنا ، وان اندريه تغير كثيرا ، وان كيتى اودنتسوف تزوجت رجلا مسنا ، وانه قد ظهر خاطب للأميرة ماريا وانه « خاطب ذوشان » ولكنهما ستتحدثان عن هذا الأمر فيما بعد . وكانت الأميرة ماريا لم تزل تنظر وهى صامتة إلى اخيها ، وعيناها الجميلتان تفيضان حبا واسى . وكان جليا ان افكارها ماضية فى واد آخر بعيدا عن ثرثرة زوجة اخيها . وفى منتصف سرد زوجة اخيها لأخبار آخر حفلات بطرسبرج ، قالت لأخيها :

ــ اذاهب انت حقا إلى الحرب يا اندريه ؟

وتنهدت . وكذلك تنهدت ليزا . واجابها اخوها :

ــ اجل ، وغداً بالذات .

ــ انه يهجرنى هنا والله اعلم لماذا ، مع انه من الممكن ان يحظى بترقية .

ولم تصغ الاميرة ماريا إلى النهاية ، بل تابعت تيار افكارها ، والتفتت إلى زوجة اخيها واستقرت عيناها على خاصرتها ، وسألتها :

— اهذا صحيح فعلا ؟

فتغير وجه زوجة اخيها وتنهدت وقالت :

— اجل . هو صحيح . وكم هو مروع !

وتهاوت شفة ليزا العليا والصقت وجهها بوجه اخت زوجها وشرعت تبكى على غير انتظار ، فقال الأمير اندريه مقطبا :

— انها بحاجة إلى الراحة . اليس كذلك يا ليزا . خذيها إلى حجرتها ريثما اذهب انا للقاء ابى . وكيف حاله الآن .. هل هى نفس الحال ؟

فاجابته الاميرة ماريا بحبور :

— كما هو تماما . ولست ادرى ماذا سيكون رايك .

فسأل الامير اندريه بابتسامة لا تكاد تلوح على وجهه ، مما يدل على انه بالرغم من حبه لابيه واحترامه اياه مدرك لمواطن ضعفه : « اهى نفس المواعيد؟ ونفس المسيرة فى مماشى البستان ، والعمل على المخرطة ؟ » .

فاجابته الاميرة ماريا بمرح :

— نفس المواعيد ، والعمل على المخرطة ، ودراسة الرياضيات ايضا ، والدروس التى يلقننى اياها فى الهندسة .

وكان هذه الدروس من ابهج احداث حياتها .

ولما انقضت العشرون دقيقة وحان وقت استيقاظ الأمير الشيخ ، جاء تيهون ليدعو الشاب للقاء ابيه . وتكريما لوصول ولده عاد الشيخ عن روتينه المعتاد . وامر بادخاله إليه فى جناحه الخاص اثناء ارتدائه ثيابه قبل الغداء وكان من عادة الأمير الشيخ ان يرتدى زيا من الطراز العتيق ، فيلبس القفطان والشعر المستعار المغطى بالبودرة . ولما دخل الأمير اندريه — لا بالوجه المتعالى المعتاد ، بل بالوجه المتلهف الذى تحدث به مع بيير — إلى حجرة ابيه ، كان الشيخ فى حجرة ثيابه جالسا فى كرسى رحب وعليه ثوب فضفاض ، ورأسه بين يدى تيهون . وقال الشيخ وهو يهز راسه المغطى بالبودرة بقدر ما سمحت له بذلك الضفيرة المجدولة فى مؤخرة راسه :

— آه ! ها هو المقاتل ! انت إذن تريد مقاتلة بونابرت ؟ .. كن منه على حذر على كل حال ، وإلا سرعان ما يضيفنا إلى قائمة رعاياه ! كيف حالك ؟

ومد وجنتيه نحو ابنه . وكان الشيخ فى احسن حال مزاجية بعد غفوته القصيرة قبل العشاء (وكان من عادته ان يقول إن النوم إذا كان بعد الغداء من فضة فهو قبل الغداء من ذهب !) وراح يرمق ابنه من تحت حاجبيه الكثين المتهدلين بنظرات حبور جانبية . وتقدم الأمير اندريه ولثم اباه فى الموضع الذى حدده له ، ولم يرد على كلام ابيه عن موضوعه الاثير ، وذلك المزاح الفكه على حساب عسكريى تلك الحقبة من الزمن ، ولا سيما بونابرت . وقال الأمير اندريه وهو

يرقب كل حركة من حركات وجه ابيه بعينين متلهفتين تفيضان بالتوقير :

— لقد جئتك يا ابى ومعى زوجة حامل . كيف صحتك انت ؟

— لا تعتل إلا صحة الحمقى والمتهتكين يا ولدى . وانت تعرفنى مشغولا من الصباح إلى الليل ، ملتزما الاعتدال ، ولذا فانا على ما يرام طبعا .

فقال ابنه باسما :

— الحمد لله !

فاستطرد الاب عائدا إلى هوايته الاثيرة :

— ليس لله كبير دخل فى هذا الموضوع . والآن خبرنى كيف دربك الالمان على قتال بونابرت بأسلوبهم العلمى الجديد ، الاستراتيجى كما يسمونه ؟

فابتسم الأمير اندريه وقال بنبرة تدل على ان نقاط ضعف ابيه لم تحل دون احترامه له وحبه اياه :

— اتح لى فسحة من الوقت لالتقاط انفاسى يا أبى . فانا قد وصلت لتوى !

فصاح الشيخ وهو يهز ضفيرته الخلفية ليتبين انها مجدولة بأحكام ، وتناول يد ابنه :

— هراء هراء! البيت متاهب لحلول زوجتك به. وستعنى بها مارى وتريها كل شىء وتثرثر معها الصاع صاعين . فهذا هو اسلوبها الانثوى . وانى لسعيد بقدومها . اجلس

وحدثنى . ان جيش ميكلسون كما سمعت وجيش تولستوى ايضا يقومان بالحملة فى آن واحد . . هذا كله اعرفه . ولكن ماذا عن النمسا ؟

ونهض عن كرسيه وتمشى فى الحجرة وتيهون يجرى خلفه ويقدم له ادوات متنوعة للزينة ، واستطرد الشيخ !

— وماذا عن السويد ؟ كيف سيعبرون بوميرانيا ؟

ولما راى الامير تلهف اسئلة ابيه شرع يشرح خطة العمليات للحملة المنتواة ، وكان فى البداية يتكلم على مضض ، ولكن اهتمامه ازداد مع مضيه فى الكلام ، وبحكم العادة تحول من الكلام بالروسية إلى الكلام بالفرنسية . واخبره كيف ان جيشا من تسعين الفا سوف يهدد بروسيا كى يخرجها من حيادها ويزج بها فى الحرب ، وكيف أن جانبا من هذه القوات سينضم إلى القوات السويدية فى سترالسوند ، وكيف ان مائتين وعشرين الف نمسوى سينضمون إلى مائة الف روسى فى إيطاليا وعلى نهر الراين ، وكيف ان خمسين الف روسى وخمسين الف جندى إنجليزى سيتقابلون فى نابولى ، وكيف ان هذا الجيش المكون من مائة الف سيهاجم الفرنسيين على جبهات مختلفة فى ان واحد . ولم يبد الأمير الشيخ ادنى اهتمام بما قاله له . وواصل ارتداء ثيابه وهو يتمشى ، متظاهرا بعدم الاصغاء ، وقاطعه ثلاث مرات على غير انتظار . فاستوقفه مرة صائحا : .

— الأبيض ! الأبيض !

وكان معنى هذا ان تيهون لم يقدم له الصدار الذى يريده.
وفى المرة الثانية وقف ثابتا وسأله :

— وهل ستضع وليدها قريبا ؟ ..

وهز راسه مؤنبا وقال :

— هذا سيىء ! استمر . استمر !

وكانت المرة الثالثة عندما اوشك الأمير اندريه على الانتهاء من سرده ، فغمغم الشيخ بالفرنسية بصوته الشائخ المرتفع الطبقة :

— «ملبروك» ذاهب إلى القتال . والله اعلم متى يعود . .

واكتفى ابنه بالابتسام وقال لابيه :

— لست ازعم ان هذه الخطة تروقنى ، كل ما هناك انى كنت اقول لك ما هى هذه الخطة . ولابد ان نابليون اعد الآن خطة تضاهيها .

— لا اراك رويت لى نبا جديدا على ذهنى .

وسرعان ما استسلم الشيخ للتفكير ثم عاد يغمغم لنفسه بسرعة :

— الله اعلم متى يعود ! اذهب الآن إلى قاعة المائدة .

— ٢٤ —

وفى الموعد المحدد بالضبط سار الامير حليقا ومتزينا بالمساحيق إلى قاعة المائدة حيث كانت فى انتظاره زوجة ابنه والأميرة ماريا والآنسة بوريين ، ومعمارى الأمير الذى كان يتغدى على مائدة الأمير بناء على نزوة غريبة منه ، مع أنه شخص تافه ليست له قيمة اجتماعية ، ولذا لم يكن يتوقع بالطبع ان ينال هذا الشرف . وكان الأمير فى العادة متشددا فى التزام فروق المقام ، ولذا قلما دعا إلى مائدته كبار الموظفين المحليين ولكنه سمح بذلك لمعماريه ميهايل ايفانوفتش ليثبت لابنه نظريته القائلة ان جميع البشر متساوون ، وقال لابنه اكثر من مرة ان ميهايل ايفانوفتش ند له ولها ، وكان الأمير يوجه الحديث على المائدة إلى المعمارى الصموت اكثر مما يوجهه لأى شخص آخر .

وفى قاعة المائدة العالية جدا شأن سائر حجرات الدار ، كان دخول الأمير ليجد جميع أعضاء بيته وكل خدمه وقوفا خلف كل مقعد . وكان الساقى وعلى ذراعه فوطة من فوط المائدة يتفحص ترتيب المائدة ، مصدرا الإيماءات إلى الخدم ، وهو يتلفت باستمرار مرجعا الطرف بين ساعة الحائط والباب الذى سيدخل منه الأمير . وكان الأمير اندريه واقفا عند إطار مذهب هائل معلق على الحائط كان جديدا بالنسبة له . ويضم هذا الإطار شجرة عائلة آل بولكونسكى ، وفى قبالته إطار فى مثل حجمه يضم رسما سيء التلوين (لابد انه من عمل احد اعضاء البيت) يمثل اميرا متوجا، والمفروض انه لسليل «روربك»

ومؤسس عائلة الأمراء بولكونسكى . ونظر الأمير اندريه إلى شجرة العائلة هذه وهز رأسه وضحك . وقال للأميرة ماريا التى دنت منه :

ـ هذا هو ابى بعينه !

فنظرت الأميرة ماريا إلى اخيها بدهشة ولم تدرك لم كان يبتسم ، فكل ما كان يصنعه والدها كان يوحى إليها اجلالا لا يسمح بالنقد . واستطرد الأمير اندريه :

ـ لكل واحد منا نقطة ضعفه . فبرغم ذهنه الكبير يهبط إلى مثل هذه التفاهات !

ولم تستطع الأميرة ماريا أن تفهم جراة نقد اخيها وتاهبت للاحتجاج عندما سمعت الخطوات التى كانوا جميعا ينتظرونها وهو قادم من المكتب . ودخل الأمير بخطى سريعة نشطة كالعهد به دائما ، وكأنه يبرز عمدا الفارق بين مرونة حركاته وتصلب روتين بيته . وفى هذه اللحظة دقت الساعة الكبيرة الثانية ، ورددت صداها ساعة اخرى فى قاعة الاستقبال ولكن بنبرات ارهف . ووقف الأمير ثابتا ، وعيناه الثاقبتان تلمعان تحت حاجبيه الكثين المتهدلين ، يتفحص بهما الجماعة كلها ، إلى ان استقرت نظراته على الأميرة الصغيرة ، التى شعرت فى هذه اللحظة بما يحس به اهل البلاط عند دخول القيصر ، وهو شعور بالرهبة والإجلال كان هذا الشيخ يوحيه لكل من حوله . وربت على راس الأميرة الصغيرة ، ثم ربت بحركة مرتبكة على عنقها ، وقال وهو يثبت نظراته فى عينيها :

ـ انى لسعيد لمرآك !

ومشى إلى كرسيه وجلس فيه وهو يقول :

ـ جلوس ! اجلس يا ميهايل ايفانوفتش . اجلس !

واشار لزوجة ابنه إلى كرسى بجواره ، فحركه الخادم كى تجلس عليه ، وقال الشيخ وهو ينظر إلى قوامها الذى استدار :

ـ هوه . هوه ! انكما لم تضيعا الوقت سدى ! هذا سيىء !

واطلق ضحكة جافة باردة غير مستساغة . ضاحكا كعادته بشفتيه لا بعينيه ، واردف :

ـ يجب ان تمشى اكثر ما يمكن !

ولم تسمع الأميرة الصغيرة او لعلها لم تهتم بسماعه ، بل جلست بكماء وقد بدا عليها الارتباك . وسألها الأمير عن ابيها ، فأخذت تتكلم وتبتسم . وسألها عن معارف مشتركين ، فازدادت حيوية الأميرة وانطلقت تتكلم مبلغة الأمير تحيات أناس مختلفين ومغضبة بما تلغط به المدينة . ثم قالت وقد اشتدت حيويتها :

ـ الكونتس ابراكسين فقدت زوجها . لشد ما بكت عليه المسكينة !

ولما بلغت حيويتها الغاية ، نظر إليها الأمير بمزيد من الحدة . وعلى حين غرة ، كأنما قد حدسها بما فيه الكفاية وكون فكرة كافية عنها ، اشاح عنها وقال للمعمارى :

— اسمع يا ميهايل ايفانوفتش ! ان صديقنا بونابرت سيواجه اياما عصيبة . فالأمير اندريه (فهكذا يتحدث دائما عن ابنه) اخبرنى عن القوات التى يجرى حشدها ضده ! مع اننا انا وانت كنا دائما نراه شخصا تافها !

وتحير ميهايل ايفانوفتش فى تذكر اى وقت تبادلا فيه اى حديث عن بونابرت . ولكنه ادرك انه استخدمه ذريعة للدخول فى موضوعه الاثير ، فنظر بتعجب إلى الأمير الشاب وهو لا يدرى ماذا سيقال بعد ذلك . وقال الأمير لابنه :

—انه تكتيكى عظيم .

واشار باصبعه إلى المعمارى ، ثم دار الحديث مرة اخرى عن الحرب وعن بونابرت وعن جنرالات هذا الزمان وساسته . ويبدو ان الأمير الشيخ كان مقتنعا بأن جميع الرجال العموميين فى هذا العهد اطفال وليست لديهم اى فكرة عن ابجديات الشئون العسكرية والسياسية . اما بونابرت — فى رايه — ففرنسى تافه صادفه النجاح لانه لم يجد رجالا من امثال بتيومكين وسوفاروف يتصدون له . بل وكان يعتقد انه لا مشكلات فى اوربا وانه لا حرب هناك فعلا ، بل مجرد عرض للدمى فى مسرح العرائس ، يتقاسم فيه اولئك الرجال المهازيل الادوار مدعين انهم يمارسون الواقع . وتقبل الأمير اندريه هزء ابيه بالمعاصرين المحدثين فى مرح ، وراح يستدرج اباه للكلام فى استمتاع واضح ويصغى لما يقول ثم قال :

— ايبدو كل ما صنع فى الماضى حسنا ؟ الم يسقط سوفوروف نفسه فى الفخ الذى نصبه له مورو ، ولم يستطع ان يخرج منه ؟

فصاح الأمير :

— من قال لك هذا ؟ من قال هذا ؟ سوفوروف ؟ !

ورمى بطبقه الذى التقطه تيهون ببراعة واستطرد الأمير :

— سوفوروف ؟ فكر مرة ثانية يا امير اندريه . فقد كان هناك رجلان : فردريش وسوفوروف .. مورو ! كان من المفروض ان يقع مورو اسيرا لو ان يد سوفوروف كانت طليقة . ولكن يديه كانتا مغلولتين ، وكان الشيطان نفسه خليقا ان يكون فى مأزق لهذا السبب . وستكتشف انت معدن هؤلاء الالمان ! ولم يكن بوسع سوفوروف ان يتغلب عليهم ، فكيف عسى ان يفعل ميهايل كوتوزوف ؟ كلا يا عزيزى ! ولذا لن تتمكن انت وجنرالاتك من التغلب على بونابرت ! بل لابد لكم من استدعاء فرنسيين لذلك الغرض — كلف لصا بالقبض على لص ! وها هو الالمانى باهلن قد بعثوا به إلى نيويورك فى امريكا لاحضار مورو !

مشيرا بذلك إلى الدعوة التى وجهت تلك السنة إلى مورو كى يدخل فى خدمة الجيش الروسى . واردف :

— مسألة غريبة ! .. ترى اكان امثال بتيومكين وسوفوروف واورلوف من الالمان ؟ كلا يا ولدى ! اما ان تكونوا جميعا قد فقدتم صوابكم او اكون انا قد عمرت حتى خرفت . بعون الله سنرى بونابرت يغدو قائدا عسكريا كبيرا ! احم !

فقال الأمير اندريه :

— لست اقول اطلاقا ان تلك الخطط جيدة . وكل

ما هناك انى لا افهم كيف يمكن ان يكون لك مثل هذا الرأى فى بونابرت . لك ان تضحك . ولكن بونابرت على كل حال جنرال عظيم !

فصاح الأمير بالمعمارى الذى كان مستغرقا فى تناول اللحم المشوى وهو يرجو أن يكونوا قد نسياه :

ـ ميهايل ايفانوفتش ! الم اقل لك ان بونابرت تكتبكى عظيم ؟ ها هو ايضا يقول هذا .

ـ يقينا يا صاحب السعادة !

وارسل الأمير الشيخ مرة اخرى ضحكته الجافة ثم قال :

ـ لقد ولد بونابرت وفى فمه ملعقة من الفضة . فلديه جنود ممتازون . وقد بدا ايضا بمهاجمة الألمان . وفى وسع اى احمق ان يهزم الألمان . اما هم فلم يهزموا احدا قط . فالجميع منذ بداية العالم قهروا الألمان . ولم يقهرواهم احدا ، وقصاراهم ان يهزموا بعضهم بعضا . ولذا فقد نال شهرته بمحاربتهم .

وشرع الأمير يحلل كل الاخطاء الجسيمة التى ارتكبها بوناترت فى رايه سواء فى الحروب او فى السياسة . ولم يعترض ابنه ، ولكن كان من الواضح انه مهما كانت الحجج التى تفند آراءه فهو مثل ابيه الشيخ نفسه فى عدم الاستعداد للتخلى عن رايه . ولم يسعه الا التعجب من ان هذا الشيخ الذى يعيش منذ سنوات طويلة وحده ولم يغادر اثناءها الريف قط ، استطاع ان يعرف كل احداث اوربا العسكرية

والسياسية فى السنوات القليلة الماضية بمثل هذا التفصيل وبكل هذه الدقة ، ويكون عنها حكما واضحا . واستطرد الأب :

ـ انت تظننى شيخا ولا افقه الأوضاع الراهنة للأمور ! ولكنى اوكد لك انى مشغول البال بها حتى انى لا انام الليل . والآن قل لى اين اثبت جنرالك العظيم ذاك انه فعلا كذلك ؟

فاجابه ابنه :

ـ هذه حكاية طويلة .

فصاح بفرنسية ممتازة :

ـ اذهب انت إلى بونابرتك . وهاهى الآنسة بوريين معجبة ايضا بامبراطورك الوغد !

ـ انت تعلم انى لست بونابرتيه يا امير . .

فهمهم الأمير بصوته المشروخ :

ـ الله وحده يعلم متى يعود .

وضحك بصوت متنافر ايضا ونهض عن المائدة .

وكانت الاميرة قد جلست صامتة اثناء هذه المناقشة بأسرها وما تبقى من وقت الغداء ، وهى تنظر برعب إلى الاميرة ماريا ثم إلى حميها . ولما نهضوا عن المائدة ، تناولت ذراع اخت زوجها وجذبتها إلى حجرة اخرى وقالت :

ـ ما اشد ذكاء والدك وبراعته ! ولعل هذا هو سبب خوفى منه .

فقالت الأميرة ماريا :

ـ اوه ! انه رقيق جدا !

- ٢٥ -

وكان الامير اندريه من المفروض ان يسافر فى المساء التالى . ولكن الأمير الشيخ لم يخرج على روتينه المعتاد ، نذهب إلى حجرته الخاصة بعد الغداء ، وكانت الأميرة الصغيرة مع اخت زوجها . وابدل الامير اندريه ثيابه وارتدى معطف سفر بدون قصب على الكتفين ، وشرع يعد حقائبه مع خادمه الخاص فى الحجرات التى خصصت له . وبعد ان فحص بنفسه العربة الكبيرة وحملت حقائبه عليها ، أمر بشد الخيول إليها . ولم تبق فى الحجرة إلا الاشياء التى كان الأمير اندريه يحملها دائما معه ، وهى حقيبة سفر ، وخزانة نبيذ فضية وغدارتان تركيتان وحسام . وهو هدية من والده عاد به من حملة حصار اوشاكوف . وكانت كل متعلقات الأمير اندريه للرحلة على اتم نظام وترتيب ، فكل شىء كان جديدا ونظيفا وداخل اغطية من القماش ، ومربوطة كلها بسيور بكل عناية .

وفى لحظات الانطلاق وابتداء حياة جديدة ، يميل ذوو الميول إلى التفكير فى افعالهم إلى اخذ الأمور بجدية . وفى مثل هذه اللحظات يستعرض المرء الماضى ويرسم خططا للمستقبل . ولقد كان وجه الأمير اندريه حالما جدا وحنونا للغاية ، فشبك يديه وراءه وراح يتمشى جيئة وذهابا بسرعة من ركن الحجرة إلى ركنها الآخر . وسواء اكان يشعر بالروع لمضيه إلى الحرب ، او الحزن لفراق امراته ، او لعل شعوره كان مزيجا من هذين الأمرين معا ، فهو على كل حال لم يكن حريصا على

ان يشاهده احد فى هذا الحال ، ولذا فانه ما ان سمع وقع خطوات فى الحجرة الخارجية حتى سارع بفك يديه والوقوف عند المنضدة ، وكانه منهمك فى إحكام غطاء الخزانة . واستعاد المعتاد من هدوئه وسحنته التى لا تنم على شىء . وكانت الخطوات خطوات الأميرة ماريا التى قالت له لاهثة (ولا شك انها كانت تجرى) :

— قيل لى انك امرت بشد الجياد إلى المركبة ، وبى رغبة شديدة فى مزيد من الحديث معك على انفراد . فالله أعلم كم سنفترق هذه المرة . لعلك لست غاضبا لحضورى إليك الآن ؟ لقد تغيرت كثيرا يا اندريوشا .

وكانها بهذه العبارة الاخيرة توضح الامر له . وابتسمت وهى تدلله قائلة يا اندريوشا . فقد كان غريبا فى نظرها ان ترى فى هذا الرجل الوسيم الجاد نفس ذلك الغلام النحيف « العفريت » الذى كان رفيق طفولتها . وسألها وهو يرد عليها بابتسامة :

— واين ليزا ؟

فقالت وهى تجلس على الاريكة فى مواجهة اخيها :

— كانت متعبة جدا فنامت على الاريكة فى حجرتى انها طفلة كاملة من كل وجه ، لطيفة ومرحة . لكم احبها .

ولم يقل الأمير اندريه شيئا ولكن الأميرة لاحظت تعبير محياه الساخر المزدرى .

— ولكنك ينبغى ان تتسامح فى نقاط الضعف الصغيرة . فمن ذا الذى يخلو منها يا اندريه ؟ ولا تنسى انها نشأت وتربت

فى المجتمع الراقى . ثم ان وضعها ليس مبهجا للغاية . وعلى المرءان يضع نفسه فى مكان الآخرين . ومن فهم كل شىء غفر كل شىء ، وتصور ماذا يعنى لها ــ هذه الصبية المسكينة ــ ان تفترق عن زوجها وتترك وحدها فى الريف وفى مثل حالتها الخاصة ايضا بعد الحياة الاجتماعية التى تعودتها . ما اشق هذا عليها .

فابتسم الامير اندريه ونظر إلى اخته مبتسما ابتسامة من يرى سريرتها . وقال :

ــ اتعيشين انت فى الريف وترين هذه الحياة مروعة ؟

ــ بالنسبة لى الأمر مختلف . فلماذا تقحمنى فى الموضوع ؟ انا لا رغبة لى فى نوع آخر من الحياة . ولكن يا اندريه ماذا يعنى لشابة تعودت المجتمع الراقى ان تدفن طــوال افضل سنوات عمرها فى الريف وحدها ، لأن اباها مشغول دائما .. وانا .. كما تعرفنى ، لست رفيقة مرحة لنساء تعودن الحياة فى ارقى مجتمع . ان الآنسة بوريين هى الوحيدة ..

فقال الأمير اندريه :

ــ انا لا احب بوريين هذه على الاطلاق !

ــ لا ! لا ! انها فتاة جد طيبة وظريفة ، وهى فضلا عن هذا جديرة بالرثاء . فليس لها اى احد فى الدنيا . والحقيقة انه لا حاجة لى بها ، فانا كما تعلم كنت دائما مخلوقة ميالة للوحدة ، وانا ازداد الآن ميلا لذلك ، واحب ان انفرد بنفسى .. وابى يحب بوريين كثيرا ، فهى وميهايل ايفانوفتش الوحيدان اللذان يألفهما ويعتدل معهما مزاجه ، لانه ولى نعمة كل منهما . وعلى حد

قول ستيرن « نحن لا نحب الناس لما اسدوه لنا من جميل بل لما اسديناه نحن لهم ! » وقد التقطها ابى يتيمة تهيم فى الطرقات وهى طيبة القلب جدا وابى يحب طريقتهــا فى القراءة ، فهى تقرا بصوت عال كل امسية ، وقراءتها جيدة جدا .

وفجاة سالها الأمير اندريه :

ــ قولى لى الحقيقة يا مارى . احسبك تعانين وتتعذبين كثيرا ، من حدة طبع والدنا احيانا ؟

وفى البداية دهشت الأميرة ماريا ، ثم اخذت بالسؤال وقالت :

ــ انا ؟ .. انا ؟ .. انا اعانى ؟

فقال الأمير اندريه متحدثا عن ابيه باستخفاف وهو يرمى بلا شك إما إلى إرباك اخته او اختبارها :

ــ لقد كان خشنا على الدوام .. ولكنه صــار الآن مضجرا جدا فيما اعتقد .

فقالت الأميرة سادرة فى تفكيرها اكثر منهــا متتبعــة لسياق الحديث :

ــ انت طيب من جميع الوجوه يا اندريه ولكنك معتــد بذهنك وتفكيرك ، وهذا إثم كبير . اتظن من الصــواب ان تحاكم اباك ؟ ولئن جاز هذا فاى شىء سوى الإجــلال يمكن ان يوحيه رجل من طراز ابى ؟ وانا شديدة الرضا والسعادة معه ، ولا اتمنى الا ان تكون فى مثل سعادتى .

فهز اخوها راسه غير مصدق ، واستطردت هى :

ــ الامر الوحيد الذى يقلقنى ــ الحق اقول لك يا اندريه ــ

هو طريقة ابى فى التفكير فى الأمور الدينية . فلست افهم كيف ان رجلا له مثل هذا العقل الكبير يمكن ان يفوته ما هو واضح وضوح الشمس فى رائعة النهار ، فيسقط فى مثل هذا الخطأ . وهذا هو الموضوع الوحيد الذى يتعسنى . ولكن حتى فى هذا الشأن لاحظت فى المدة الاخيرة شيئا من التحسن . فلم تعد سخرياته بالغة المرارة . وهناك راهب صار يستقبله ويتحدث إليه مدة طويلة .

فقال الأمير ساخرا ولكن فى مودة :

ـ يا عزيزتى . اخشى ان تكونى انت وراهبك تضيعان جهودكما هباء .

ـ آه يا صديقى ! لا يسعنى إلا ان اضرع إلى الله واثق بانه سيستجيب لى .

وبعد دقيقة صمت قالت على استحياء :

ـ ساطلب منك مكرمة كبيرة .

ـ ما هى يا عزيزتى ؟

ـ كلا . عدنى اولا انك لن ترفض . وليس فى هذا ازعاج لك او ما يغض منك . ولكن ذلك سوف يريحنى . عدنى يا اندريوشا !

ووضعت يدها فى حقيبة يدها وامسكت بشىء ما من غير ان تريه اياه ، مما يدل على انها قابضة على موضوع رجائها ، ولا يمكنها ان تبرزه قبل أن يعدها . ونظرت إليه بتوسل : فقال الامير اندريه وكأنه خمن ما هى هذه المكرمة :

ـ حتى ولو كان فى هذا ازعاج شديد .

ـ لك ان تظن به ما تشاء ، فأنا اعرف انك على شاكلة ابى . وانت حر فى رايك ولكن اصنع ما اطلبه منك لاجل خاطرى . فقد كان والد ابى ـ جدنا ـ يلبس هذا الشىء فى حروبه .

ولم تخرج هذا الشىء من حقيبتها الصغيرة ، بل قالت :

ـ عدنى اولا . هه ؟

ـ طبعا اعدك . ما هو هذا الشىء .

ـ اندريه . انى اباركك بالصورة المقدسة . ويجب ان تعدنى انك لن تخلعها ، كى تسعدنى .

فقال الأمير اندريه :

ـ بشرط الا تزن طنا ولا تكسر رقبتى .. اكراما لك اعدك بذلك .

ولاحظ على الفور تعبير الالم على محيا اخته لهذا المزاح، وقال وكله ندم :

ـ انى سعيد بها حقا يا عزيزتى .

فقالت بصوت يرتجف بالانفعال :

ـ برغم ارادتك سينجيك الله ويتعطف عليك ويجتذبك إليه ، لانه هو وحده الحق والسلام .

وبايماءة جادة امسكت بيديها امام اخيها صورة صغيرة عتيقة الطراز بيضاوية مقدسة تمثل المخلص بوجه اسود على ارضية فضية ، مدلاة من سلسلة فضية صغيرة دقيقة الصنع.

ورسمت الصليب على نفسها وقبلت الصورة وقدمتها إليه قائلة :

— ارجوك ان تلبسها يا اندريه من اجلى .

وومضت فى عينيها الواسعتين اضواء حانية ، فاضاءت هاتان العينان الذقن والوجه الهزيل . واوشك اخوها ان يأخذ الصورة ، ولكنها استوقفته . ففهم اندريه ما تريده ورسم على نفسه الصليب وقبل الصورة وبدا على محياه الحنان (لشدة تأثره) مع إمارات السخرية فى الوقت نفسه . فقبلته على جبينه وجلست مرة اخرى على الاريكة وهى تقول له : « شكرا يا صديقى » ولاذا كلاهما بالصمت . ثم قالت :

— يجب ان تكون عطوفا وكريما كعادتك دائما كما قلت لك يا اندريه . ولا تقسو فى الحكم على ليزا ، فهى عذبة للغاية وطيبة القلب جدا ، ووضعها الآن قاس جدا عليها .

— اعتقد انى لم اقل لك شيئا يا ماشا يشتم منه انى الوم زوجتى على اى شىء ، او اننى ساخط عليها ، فما الذى جعلك تقولين هذا كله لى ؟

فتضرج وجه الاميرة ماريا بالحمرة وصمتت ، وكأنها احست انها مذنبة .

— انا لم اقل لكَ شيئا ولكنك خوطبت فى الامر ، وهذا يحزننى .

فازدادت البقع الحمراء فى وجهها عند الجبهة والعنق والخدين ، وكان بوسعها ان تقول شيئا ولكنها لم تحر جوابا

فقد صدق حدس اخيها ، لأن زوجته ذرفت الدموع بعد الغداء وقالت انها تتوجس من تعسر الولادة وهذا يخيفها . وراحت تندب حظها العاثر وتشكو من حميها وزوجها . وبعد ان انهكها البكاء نامت . وشعر الأمير أندريه بالأسى لشقيقته .

— دعينى اقل لك شيئا واحدا ياماشا ، وهو أننى لا الوم زوجتى على اى شىء. ولم ولن الوم نفسى على اى عمل بازائها ، وسيكون الحال هكذا فى اى ظرف اكون فيه . ولكن ان اردت الحقيقة ، واردت أن تعرفى هل انا سعيد ، فالجواب لا . اهى سعيدة؟ الجواب لا . ولم هذا؟ لست ادرى .

وفيما هو يقول هذا ذهب إلى شقيقته وقبلها على جبينها ، واضاءت عيناها البديعتان بوميض خارق للذكاء والطيبة . ولكنه لم يكن ناظرا إلى شقيقته ، بل إلى ظلام الباب المفتوح فوق رأسها ، ثم اردف :

— هيا بنا نذهب إليها ، فلابد أن اودعها . وافضل ان تذهبى إليها بمفردك لتوقظيها وسأتبعك بعد دقيقة .

ونادى خادمه الخاص قائلا :

— بتروشكا ! تعال هنا وخذ كل هذه الأشياء . ضع هذه فى المقعد الخلفى وضع هذه على الجانب الأيمن .

ونهضت الأميرة ماريا واتجهت نحو الباب ثم توقفت :

— اندريه ! لو كان لك إيمان لتضرعت إلى الله كى يهبك الحب الذى لا تشعر به الآن ، ولاستجاب لدعائك !

— لعل الأمر كما تقولين . اذهبى يا ماشا وسآتى انا على الفور .

وفى الطريق إلى حجرة اخته ، فى الرواق الذى يربط إحدى الدارين بالأخرى ، قابل اندريه الآنسة بوريين مفترة عن ابتسامة عذبة . وهذه هى ثالث مرة فى ذلك النهار تلقى بنفسها فى ابتسامة بريئة حماسية فى طريقه بتلك الممرات المنعزلة . وقالت وهى تحمر خجلا لسبب ما وتغض بصرها .

ــ آه ، لقد ظننتك فى حجرتك .

فنظر إليها الامير اندريه بحدة ، وطفت على محياه امارات سخط غاضب ، ولم يقل لها شيئا ، ولكنه حملق فى جبينها وفى شعرها من غير ان ينظر إلى عينيها بازدراء شديد حتى ان المراة الفرنسية صار وجهها قرمزيا وانصرفت من غير ان تنبس . ولما وصل أندريه إلى حجرة شقيقته كانت الاميرة الصغيرة قد استيقظت وسمع صوتها المرح من خلال الباب المفتوح ، فى كلمات سريعة التدفق ، كانما انطلقت فى الكلام بعد طول كبح ، كى تعوض مافاتها . . كانت كعادتها دائما تتكلم بالفرنسية :

ــ لا . بل تصورى الكونتس زوبوف العجوز ، بتموجات شعرها المستعارة وفمها الملآن بالاسنان الصناعية وكانها تريد ان تتحدى السنين . ها ها ها ها . يامارى !

ونفس هذه العبارة عن الكونتس زوبوف ونفس هذه الضحكة كان الأمير اندريه قد سمعها من زوجته خمس مرات من قبل امام غرباء . ودخل الحجرة بخفة ، وكانت الاميرة الصغيرة البضة الوردية اللون جالسة فى مقعد منخفض واشغالها فى يديها ، تتدفق منها ذكرياتها البطرسبرجية بهذه

العبارات . واتجه إليها الأمير اندريه وربت على راسها وسالها هل عوفيت من ارهاق الرحلة ، فأجابته وواصلت كلامها .

وكانت المركبة ذات الجياد الستة امام الدرج ، والليلة من ليالى الخريف المظلمة . فلم يتمكن الحوذى من رؤية العريش . وكان الخدم حاملين الفوانيس يجرون جيئة وذهابا على الدرج . والدار الكبيرة متوهجة بنوافذها المضاءة ، ورقيق الدار قد تجمعوا فى البهو الخارجى كى يودعوا اميرهم الشاب . اما فى البهو الداخلى فوقف كل افراد الدار : ميهايل ايفانوفتش والآنسة بوريين والأميرة ماريا والأميرة الصغيرة . وكان الأمير اندريه قد استدعى إلى مكتب والده الذى اراد ان يودعه على انفراد . والجميع فى انتظار خروجه من عنده . ولما دخل الأمير اندريه المكتب كان الأمير الشيخ لابسا نظارته وروبه الأبيض الذى لم يكن يقابل به احدا سوى ابنه . وكان جالسا إلى المنضدة يكتب ، وتلفت وقال :

ــ اذاهب انت ؟

ثم واصل الكتابة .

ــ لقد جئت لاودعك .

ــ قبلنى هنا !

ولمس خده .

ــ شكرا ! شكرا !

ــ وعلام تشكرنى ؟

ـ على انك لم تتأخر عن موعدك المحدد ولم تتلكأ بين اثواب النسـاء ! الواجب قبل كل شىء ! شكرا ! شكرا !

وواصل الكتابة حتى لقد تناثر الحبـر من القلم ، ثم اردف :

ـ ان كنت تريد ان تقول شيئا قله ! ففى وسعى ان اقوم بهذين الامرين معا .

ـ المسالة تتعلق بزوجتى .. بخجلنى أن اتركها عبئا على كاهلك ..

ـ لماذا تقول هذا اللغو ؟ قل ماذا تريد .

ـ إذا حان وضع زوجتى ، استدع من موسكو طبيبا مولدا .. ليأتى إلى هنا .

فتوقف الشيخ ونظـر إلى ابنه بعينين حادتين كأنه لم يفقه . فقال الأمير أندريه مرتبكا .

ـ اعرف انه لا جدوى من احد إن لم تقدم الطبيعة عونها . واعرف ان حالة واحدة فى المليون تشذ عن الطبيعة ، ولكن هذا هو وهمى ووهمها . فقد حدثها الناس بأشـياء ورات حلما ، وارتاعت .

فهمهم الأمير الشيخ لنفسـه وهو يواصل الكتابة ثم قال :

ـ سأنفذ ما طلبت .

ومهر الورقة بتوقيعه ثم التفت إلى ابنه بسرعة وضحك قائلا :

ـ مسألة سيئة . اليس كذلك ؟



واتجه إليهـا الأمير أندريه وربت على رأسها وسـألها هل عوفيت من إرهاق الرحلة ..

— وما هى هذه المسألة السيئة يا أبى ؟

فقال الامير الشيخ باقتضاب ذى مغزى :

— الزوجة !

فقال الامير اندريه :

— لم افهم مرادك .

— ولكن لا حيلة فى الامر يا ولدى العزيز .. كلهن هكذا ! ولا فكاك من الزواج بعد عقده . لا تخف . لن اقول شيئا لاحد . ولكنك شخصيا تعرف هذه الحقيقة .

وقبض على يده بأصابعه الصغيرة النحيلة البارزة العظام ، وهزها ، ثم نظر فى وجه ابنه محدقا بعينيه الثاقبتين اللتين كأنهما تنفذان إلى سريرة كل امرىء ، ثم اطلق مرة اخرى ضحكته الجافة . فتنهد الابن ، معترفا بتنهده هذا ان اباه ادرك كنه طويته . وراح الامير الشيخ يطوى الرسائل ويختمها بسرعته المعتادة وهو يحرك الشمع والأوراق والختم . ثم قال وهو يختم الرسالة الأخيرة :

— لا حيلة فى الأمر ، فهى جميلة . وسأفعل كل شىء . كن مستريح البال .

ولم يتكلم اندريه . فقد سره وآلمه فى آن واحد ان يفهمه ابوه . ونهض الشيخ قائما وقدم الرسالة إلى ابنه قائلا :

— اسمع ! لا تقلق بشأن زوجتك ، فسيعمل كل ما يمكن عمله . والآن اصغ لى ! سلم هذا الخطاب إلى ميهايل ايلاريونوفتش . وقد كتبت له ان يستفيد بك فى عمل جيد ، ولا يبقيك معاونا مدة طويلة . فهذا عمل خسيس ! وقل له إنى

اتذكره واحبه . واكتب إلى كيف استقبلك ، فان كان على ما يرام اخدمه ، فان ابن نيقولاى اندريتش بولكونسكى لا حاجة به إلى الخدمة تحت إمرة اى إنسان على سبيل المكرمة ! والآن تعال هنا !

وكان يتكلم بسرعة كبيرة حتى انه لم يكن يكمل نصف الفاظه ، ولكن ابنه كان متعودا ان يفهمه . وقاد ابنه إلى المكتب وفتحه ، وجذب درجا اخذ منه دفترا مخطوطا مكتظا بخط يده بحروف كبيرة تنم على الجراة ، وقال :

— انا واثق بأنى سأموت قبلك . وهذه مذكراتى التى يجب تقديمها للامبراطور بعد موتى . ثم ها هو إذن مصرفى وخطاب ، وهو جائزة لمن يكتب تاريخ حروب سوفوروف . ابعث بهما إلى الاكاديمية . وهاك ملاحظاتى ، طالعها بعد وفاتى لفائدتك الخاصة ، فسوف تجدها مفيدة .

ولم يقل اندريه لابيه لعل امامه سنوات كثيرة يعيشها ، فقد كان يعرف انه لا حاجة به إلى هذا القول . بل قال :

— سأفعل هذا كله يا أبى !

فمد يده إلى ابنه كى يقبلها وعانقه قائلا :

— والآن وداعا ! وتذكر امرا واحدا يا امير اندريه ، انك إن قتلت فسيكون ذلك مصدر حزن كبير لى فى شيخوختى ..

وسكت فجاة ، ثم فجاة ايضا استطرد بصوت أجش وهو يرتجف :

— ولكنى إن عرفت انك لم تسلك كما ينبغى لابن نيقولاى بولكونسكى فسوف اشعر بالعار .

فقال ابنه باسما :

— لم تكن بك حاجة إلى ان تقول لى هذا يا ابى !

ولم يقل الشيخ شيئا . واستطرد الأمير اندريه :

— ثمة شئ آخر كنت اريد ان اطلبه منك .. إن قتلت وكان لى ابن، لا تدعه يفلت من يديك، بل ربه انت .. كما قلت لك بالامس .. ارجوك !

فقال الشيخ وهو يضحك :

— ولا اعطيه لزوجتك ؟

ووقف الاثنان متواجهين ، وعينا الشيخ الحادتان شاخصتان إلى عينى ابنه . وعبرت ارتجافة بالجزء الأدنى من وجه الامير الشيخ .. وفجاة صاح بغضب وهو يفتح الباب :

— لقد انتهينا من الوداع .. هيا امض ! امض !

وسالت الاميرتان عندما لمحتا الأمير اندريه ، ولمحتا طرفا من وجه الشيخ فى ردائه الأبيض ، وقد لبس نظارته وخلع باروكته ، وسمعتاه يصيح بذلك الصوت الغاضب :

— ما المسالة ؟ ماذا جرى ؟

فتنهد الأمير اندريه ولم يجب ، ثم التفت إلى زوجته وقال :

— وبعد ؟

فبدت هذه الكلمة لونا من السخرية الباردة بانفعالها ، وكانه يقول لها :

— هيا ادى مشهدك المالوف !

فقالت الأميرة الصغيرة وقد شحب وجهها وهى تنظر إلى زوجها برعب :

— اندريه ! اندريه !

فعانقها ، وصرخت وارتمت على كتفيه مغشيا عليها . وبحذر سحب كتفه من تحت وجهها ، ونظر إليه .. ثم وضعها بعناية فوق مقعد منخفض ، وودع اخته بحنان ، وقبل كل منهما يد الآخر ، ثم غادر الحجرة بخطى سريعة .

ورقدت الأميرة الصغيرة فى مقعد كبير وراحت الآنسة بوريين تدلك لها صدغيها . اما الاميرة ماريا ، فوقفت تسند زوجة اخيها ونظرات عينيها البديعتين الملآتين بالدموع شاخصة إلى الباب الذى خرج منه الامير اندريه ، ورسمت عليه علامة الصليب . ومن حجرة المكتب سمع كطلقات المسدس صوت تمخط الشيخ المتكرر . وبعد ذهاب اندريه ، انفتح باب حجرة المكتب بعنف ، وبرز منه الشيخ فى ردائه الابيض ، وقال بغضب :

— هل ذهب ؟ ما ابدع هذا !

فقد راى الاميرة الصغيرة المغشى عليها ، وهز راسه هزة التقريع ، ثم صفق الباب بعنف .

القسم الثانى

— ١ —

فى اكتوبر سنة ١٨٠٥ كانت الجيوش الروسية تحتل مدن وقرى ارشيدوقية النمسا ، وظلت الوية جديدة تفد من روسيا وتعسكر حول قلعة براوناو ، فاثقلوا كاهل السكان بايوائهم . وكانت براوناو مقر القيادة للقائد العام كوتوزوف ، وفى ١١ اكتوبر سنة ١٨٠٥ توقف لواء مشاة وصل لتوه إلى براوناو على مسيرة نصف ميل من المدينة انتظارا لقدوم القائد العام للتفتيش . وبرغم اختلاف الإقليم تماما عن الطابع الروسى واختلاف البيئة (فثمة حدائق فاكهة واسوار من الحجر وسقوف مقرمدة ، والجبال القائمة عن بعد ، والفلاحون الأجانب ينظرون بفضول إلى الجنود الروس) إلا ان اللواء بدا مطابقا بالضبط لكل لواء روسى عندما يكون على اهبة التفتيش فى اى مكان فى قلب روسيا . ففى المساء فى آخر مراحل السير وصلت الاوامر بأن القائد العام سوف يفتش اللواء اثناء الزحف . ومع ان الفاظ الامر لم تبد واضحة تماما لقائد اللواء وحدث اختلاف حول هل المقصود الزحف ام نظام الزحف ، واخيرا اتفقت كلمة الآمرين على عرض اللواء بترتيب الزحف على ارض الميدان ، على حسب المثل القائل ان الافراط فى الانحناء افضل من عدم الانحناء بما فيه الكفاية . وهكذا بعد مسيرة ٢٥ ميلا لم يغمض الجنود عيونهم بل قضوا الليل كله

فى الرتق والتنظيف . اما المعاونون والضباط فراحوا يتشاورون ويراجعون كل شىء . وعند انبلاج الصبح لم يبد اللواء على ما كان عليه من حشد غير منتظم فى المرحلة الأخيرة من المساء المنصرم ، بل بدا كتلة منظمة من الفى رجل ، يعرف كل منهم دوره وواجبه ، وكل زر وكل حزام فى وضعه الصحيح ويلمع من شدة النظافة . ولم يكن المظهر وحده هو الجيد ، بل ان القائد العام إن خطر له ان يلقى نظرة على ما تحت الزى العسكرى لراى على كل رجل منهم قميصا نظيفا ، ولوجد فى كل « جربندية » العدد الذى تحدده اللوائح للمعدات . ولم يكن هناك الا مثار واحد للقلق هو الاحذية ، فاكثر من نصف الجنود فى احذيتهم ثقوب ، ولكن لا ذنب فى هذا لقائدهم ، فعلى الرغم من مطالباته المتكررة لم تصله الاحذية بعد من السلطات النمساوية ، مع ان اللواء سار على قدميه نحو سبعمائة ميل .

وكان قائد اللواء جنرالا دموى السحنة تجاوز منتصف العمر ، كسا الشيب شاربه وسوالفه وحاجبيه ، وهو عريض المنكبين مكتنز ، وعليه بزة جديدة لم تزل عليها تكسيرات الطى ، ولها قصبات ذهبية ثمينة تبدو مثبتة على كتفيه الغليظتين وبان عليه الرضا بانه انجز واجبا من اهم واجباته فى الحياة . وراح يتمشى أمام الطابور ، ويرتجف فى مشيته بهزة خفيفة من ظهره مع كل خطوة . فقد كان واضح الأعجاب بلوائه سعيدا به . ومن الجلى أن كل تفكيره منصرف إلى لوائه . ولكن اهتزازة مشيته كانت تنبى ايضا عن ميله القلبى للحياة الاجتماعية وما فيها من الوان اللهو ، وللجنس اللطيف !

وقال مخاطبا احد المقدمين الذى اقبل نحوه باسما مما يدل على انسجامهما :

ــ يا ميهايل متريتش . لقد شغلنا بالعمل طول الليل ، ولكنى اعتقد اننا افلحنا . فاللواء ليس سيئا للغاية مثل بعض الالوية الأخرى ، اليس كذلك ؟

وادرك المقدم هذه السخرية المرحة وضحك قائلا :

ــ لن يكونوا محل امتعاض حتى لو كانوا فى ساحة العرض القيصرى !

وفى هذه اللحظة لاح على طريق المدينة فارسان على جوادين ، حيث كان الديدبانات قد اقيموا لأعطاء النذير ، وكان القادمان معاون يركب وراءه قوزاقى . وقد ارسل القائد العام المعاون ، ليؤكد لقائد اللواء رغبة القائد العام فى تفتيش جنود اللواء بنفس الترتيب الذى وصلوا به ، وعليهم معاطفهم وحاملين امتعتهم وبدون إعداد خاص من اى نوع .

وكان احد اعضاء هيئة المستشارين الالمان قد قدم من فينا واجتمع بكوتوزوف فى اليوم السابق ، وجعل يطلب منه ان يتحرك بأسرع ما يمكن كى يلتحم بجيش الارشيدوق فرديناند والجنرال ماك . ولكن كوتوزوف لم يرقه ذلك واعتزم ان يطلع الجنرال النمساوى على الحالة الزرية للقوات التى وصلت من روسيا . ولهذا الغرض كان يريد عرض اللواء ، بحيث انه كلما كانت حالته اسوا كان ذلك ادعى لسرور القائد العام . ومع ان المعاون لم يكن على علم بهذه التفصيلات ، إلا انه ابلغ الرسالة لقائد اللواء ، مصرا على ان القائد العام

يريد ان يرى الجنود فى معاطفهم وبترتيب زحفهم ، وانه ما لم يتم هذا فسوف يستاء القائد العام !

وما ان سمع الجنرال هذا حتى ثقل راسه ، وهز كتفيه وبسط كفيه بايماءة غضب :

ــ ها نحن قد اسانا التصرف ! الم اقل لك يا ميهايل متريتش ان المراد عرضهم فى معاطفهم ؟ .. يا إلهى !

وتقدم بعزم إلى الامام وصاح بصوت من تعود الامر والنهى :

ــ نقباء السرايا ! ايها الرقباء !

والتفت إلى المعاون وساله :

ــ هل سيحضر صاحب السعادة بسرعة ؟

ــ فى مدى ساعة ، كما اعتقد .

ــ الدينا وقت لتبديل ثيابنا ؟

ــ لا يسعنى ان اقدر هذا يا جنرال .

وجاس الجنرال بنفسه وسط الصفوف ، وامر الجنود بارتداء المعاطف . وركض النقباء وسط السرايا ، وراح الرقباء يتحركون بنشاط جيئة وذهابا ، فالمعاطف لم تكن على احسن حال . وسرعان ما اختل نظام اللواء وكثر فيه اللغط بعد ان كانت كتائبه منتظمة صامتة . وراح الجنود يركضون إلى الامام والخلف فى كل اتجاه ، وينحنون ليحملوا امتعتهم على ظهورهم بعد ان اخرجوا منها معاطفهم ودسوا اذرعهم فى اكمامها . وبعد نصف ساعة كان كل شىء على حاله السابق

وصارت الكتائب كلها رمادية اللون لا سوداء ، وراح الجنرال يتمشى ويهتز أمام اللواء ، ويرمقه عن بعد . ثم وقف ثابتا وصاح :

— ماذا بعد هذا ؟ ما هذا يا نقيب السرية الثالثة .

وتجاوبت بين الصفوف نداءات :

— نقيب السرية الثالثة يوافى الجنرال . جنرال السرية الثالثة يوافى النقيب ! وجرى احد المعاونين للبحث عن الضابط المتأخر .. واخيرا برز الضابط المطلوب من وراء السرية مع انه كان مسنا ولم يتعود الجرى ، إلا انه مشى بخطوة سريعة نحو القائد وهو يتعثر باطراف اصابعه . وبدت على النقيب امارات ارتباك تلميذ نودى لتسميع درس لم يحفظه . وكست أنفه بقع حمراء (لابد انها راجعة إلى كثرة معاقرته الخمر) ولم يدر كى يسيطر على فمه . وحدجه الجنرال من اعلى إلى اسفل وهو يجرى عندما اخذ يبطىء مع اقترابه منه . وصاح الجنرال وابرز فكه الأسفل وهو يشير وسط صفوف السرية الثالثة إلى جندى عليه معطف من لون مختلف عن الباقين :

— احسبك ستلبس رجالك التنورات بعد ذلك ! ثم اين كنت انت ؟ إننا فى انتظار القائد العام وانت لست فى مكانك . وسألقنك درسا على هذا الخلط فى زى جنودك عند التفتيش ! هه ؟

ولم يحول النقيب عينيه قط عن رئيسه ، وراح يضغط قمة قبعته باصبعيه كانما هذا الضغط هو الامل الوحيد فى نجاته . وقال الجنرال هازئا به فى مشاغبة شرسة :

— لماذا لا تتكلم ؟ من هذا الذى يرتدى زى اهل المجر ؟

— يا صاحب السعادة ...

— أنت تكرر يا صاحب السعادة ، يا صاحب السعادة يا صاحب السعادة ! ولا احد يعرف ماذا تعنى .

فقال النقيب بصوت خافت :

— انه دوبولوف ، الذى انزلت رتبته يا صاحب السعادة .

— هل انزلت رتبته ليصير مارشالا أم جنديا عاديا ؟ إن كان جنديا يجب إذن ان يرتدى زى سائر الجنود، طبقا للائحة.

— ولكنك يا صاحب السعادة سمحت له بهذا اثناء السير .

فقال الجنرال وقد هدأ بعض الشىء :

— انا سمحت له . هكذا انتم دائما ايها الشبان . إذا قال المرء لكم كلمة ذهبتم و ... ارجوك ان تلبس جنودك كما ينبغى .

والتفت الجنرال إلى المعاون ، وسار بمشيته المهتزة صوب اللواء . وكان واضحا انه مسرور من سورة غضبه ؛ وراح ينقب بين الصفوف عن سقطة يثور لها ، فصاح فى وجه هذا الضابط او ذاك لاعوجاج فى الصف .. إلى ان وصل إلى السرية الثالثة حتى وقف قبل دولوهوف فى معطفه الأزرق بخمسة رجال ، وصاح به فى غضب :

— اين ساقك ؟ ما هذه الوقفة ؟ اين ساقك ؟

فبسط دلوهوف ساقه المثنية ونظر بعينيه الصافيتين الوقحتين فى وجه الجنرال .

— لماذا ترتدى معطفا ازرق ؟ اخلعه حالا ! ... ايها الرقيب ابدل معطف هذا ال ...

وقبل ان يتم كلمته اسرع دولوهوف يقول :

— انا ملزم بإطاعة الاوامر ، ولكنى غير ملزم بتحمل ..

— لا كلام فى الطابور ! لا كلام ! لا كلام !

فواصل دولوهوف كلامه قائلا بصوت واضح مرتفع :

— لست ملزما بتحمل الاهانات .

والتقت عينا الجنرال والجندى . فسكت الجنرال وجذب وشاحه إلى اسفل ، ثم قال وهو منصرف :

— ابدل معطفك إذا سمحت !

— ٢ —

وفى هذه اللحظة صاح الديدبان :

— قادمون !

فاحمر وجه الجنرال وجرى إلى جواده ، ويداه المرتجفتان على الركاب ، ثم قذف بنفسه إلى اعلى واستقر فى سرجه وامتشق حسامه ، ولوى فمه وتأهب للنداء ، وانتفض اللواء كله كأنما هو طير يهندم جناحيه ثم فاء إلى الثبات والسكون . وهدر صوت الجنرال بصوت صارخ :

— سكوت !

معبرا فى آن واحد عن السرور بنفسه ، والصرامة بازاء اللواء ، والترحيب بالقائد العام الذى يقترب . وجاءت مركبة عالية زرقاء من طراز «فيينا» تجرها عدة خيول فى خبب نشط ، ولوالبها تتعقع على الطريق الكبير غير المرصوف ، وعلى جانبيه الأشجار المفروشة . وكانت كوكبة من حاشية الجنرال ومرافقيه الكرواتيين تركض وراء المركبة . وإلى جوار كوتوزوف جلس جنرال نمساوى فى بزة عسكرية بيضاء بدت غريبة المنظر وسط البزات الروسية السوداء ، وكان كوتوزوف والجنرال النمساوى يتحدثان بصوت خفيض فى شأن من الشئون، وابتسم كوتوزوف ابتسامة يسيرة وهو يضع قدمه على درج المركبة وكأن هؤلاء الألفين من الرجال المحملقين فيه وفى جنرالهم وقد كتموا انفاسهم لا وجود لهم على الاطلاق .

ودوى النداء الآمر ، فانتفض اللواء مرة اخرى مع صليل سلام السلاح . وفى الصمت الرائن سمع صوت القائد العام ، فصاح اللواء كهدير الرعد .

— قواك الله يا صاحب السما ... السعادة !

ثم ساد الصمت من جديد . ووقف كوتوزوف فى البداية فى موضع ما واخذ اللواء يتحرك ، ثم شرع كوتوزوف يمشى راجلا بين الصفوف وبجواره الجنرال الأبيض ووراءه الحاشية . .

ومن الطريقة التى حيا بها الجنرال قائد اللواء العام ، مثبتا عينيه فيه وبكل احترام وخضوع ، بل ومن طريقة مشيه فى اثر الجنرالين بين الصفوف مطامنا من اهتزاز مشيته ، واندفاعه لتسقط كل كلمة وكل إيماءة تصدر من القائد العام .. كان واضحا انه يؤدى واجباته كمرءوس بحماسة اشد من

تأديته لواجباته كقائد . وبفضل دقة ومثابرة هذا القائد كان اللواء فى حالة ممتازة بالقياس إلى الألوية الاخرى التى وصلت قبله إلى براوناو فى نفس الفترة . ولم يتجاوز المرضى والمتلكئون الذين تركوهم وراءهم اكثر من ٢١٧ جنديا ، وكان كل شىء على ما يرام فيما عدا احذية الجنود .

وراح كوتوزوف يتمشى بين الصفوف ، متوقفا فى الحين بعد الحين ليقول كلمة مودة لضباط عرفهم فى الحرب ضد تركيا، بل واحيانا يقول مثل ذلك للجنود . ولما نظر إلى احذيتهم هز راسهم بأسى وهو يوجه نظر الجنرال النمساوى إليها ، لا على سبيل توجيه اللوم لأى احد ، بل اعرابا عن انه لا حيلة له فى إدراك حالتها السيئة . وكان قائد اللواء فى كل مناسبة من هذا القبيل يجرى إلى الامام خشية ان تفوته كلمة واحدة مما يقوله القائد العام عن اللواء . ومن وراء كوتوزوف تسير حاشيته بحيث تسمع كل كلمة يتفوه بها مهما كان صوته خفيضا ، وهم قرابة عشرين شخصا ، يتبادلون الاحاديث فيما بينهم ، واحيانا يضحكون . وكان اقربهم إلى القائد العام معاون وسيم هو الامير بولكونسكى ، وإلى جواره زميله نسفتسكى ، وهو طويل القامة من ضباط اركان الحرب . شديد الاكتناز ، ذو وجه وسيم باسم ينم على طيبة ، وعيناه نديتان . ولم يكد نسفتسكى يكتم مرحه الذى اثاره ضابط «هوسار» يسير بقربه . فهذا الضابط ، من غير ان يبتسم أو يرتسم على وجهه وعينيه الثابتين اى تعبير ، كان يحدق فى ظهر قائد اللواء بكل جدية ويقلد كل حركة تصدر منه . فى كل مرة يرتجف فيها أو ينتفض ويندفع للامام كان هذا الضابط من

« الهوسار» ينتفض ويندفع إلى الامام على نفس النحو تماما . وضحك نسفتسكى ولكز الآخرين ليحملهم على النظر إلى هذه المحاكاة .

اما كوتوزوف فكان يمشى ببطء وبلا انحراف بين الوف الأعين التى اوشكت ان تبرز من محاجرها كى ترقبه . ولما وصل إلى السرية الثالثة وقف فجأة . ولم تتوقع الحاشية هذا التوقف فازداد اقترابها منه . وقال القائد العام وقد عرف النقيب ذا الأنف الاحمر الذى كان قائده قد وبخه بسبب المعطف الأزرق :

ـــ آه ! تيموهين !

ووقف تيموهين فى غاية الانتصاب بحيث لو طال وقوف القائد العام امامه لانهارت صلابة هذه الوقفة العسكرية . وادرك كوتوزوف ما هو فيه من محنة ، فأعرب له عن اطيب تمنياته ثم اسرع بالانصراف عنه وقد لاحت على وجه كوتوزوف ابتسامة لا تكاد ترى ، وهو وجه قصير بدين شوهته ندبه جرح . وقال :

ـــ أنه رفيق سلاح آخر فى موقعه ، اسمعيل ضابط باسل .

وسأل قائد اللواء :

ـــ أراض انت عنه ؟

وانتفض قائد اللواء ـ الذى لا يدرى ان ضابط الهوسار يقلده من وراء ظهره ـــ وتقدم إلى الامام وقال :

ـــ كل الرضا يا صاحب الفخامة !

فابتسم كوتوزوف وهو منصرف عنه :

— لكل منا نقطة ضعفه . فهو من عشاق الخمر . .

وخشى قائد اللواء أن يلحقه من ذلك ملام فلاذ بالصمت ولاحظ ضابط الهوسار فى تلك اللحظة وجه النقيب ذى الأنف الأحمر ، وقد امتص بطنه إلى الداخل ، فقلد وجهه ووقفته تقليدا طبق الأصل فلم يستطع نسفتسكى كبت ضحكه . فالتفت كوتوزوف إلى الخلف . وكان الضابط قادرا ان يصنع بوجهه أى شىء يشاء ، ففى لمح البصر ما كاد كوتوزوف يلتفت حتى ارتسمت على محيا الضابط إمارات الاحترام الشديد والجد التام والبراءة الكاملة .

وكانت السرية الثالثة هى الأخيرة . وبدا على كوتوزوف انه يفكر كمن يحاول ان يتذكر شيئا ما . فتقدم الأمير أندريه إلى الامام وقال له بالفرنسية بصمت خفيض :

— لقد طلبت منى ان اذكرك بالضابط الذى انزلت رتبته ، وهو دولوهوف الذى يخدم فى صفوف الجند بهذا اللواء .

فقال كوتوزوف :

— اين دولوهوف ؟

وكان دولوهوف قد صار الآن فى معطف رمادى برتبة نفر فلم ينتظر إلى ان ينادى عليه قائده بل خطا خارجا من الصف بشعره الأصفر وعينيه الزرقاوين اللامعتين ، واتجه نحو القائد العام وأدى سلام سلاح . فسأله كوتوزوف مقطبا بعض الشىء :

— اتريد التقدم بشكوى ؟

فقال الأمير اندريه :

— بل هذا هو دولوهوف .

آه ! أرجو ان يكون هذا درسا لك . وقم بواجبك على اتم وجه . والإمبراطور رحيم وسوف لا أنساك ، إن اثبت انك جدير بهذا العفو .

ونظرت العينان الزرقاوان إلى القائد الأعلى بنفس التبجح الذى نظر به إلى قائد لوائه ، كأنما يمزق بذلك قناع العرف الذى يباعد كثيرا بين القائد العام والجندى ، وقال بصوته الثابت الرنان المتأنى :

— المكرمة الوحيدة التى ارجوها من فخامتك ان تمنحنى الفرصة لأكفر عن إساءتى ، واثبت ولائى لجلالة الإمبراطور ، ولروسيا .

وأشاح عنه كوتوزوف وفى عينيه نفس الابتسامة التى اشاح بها عن النقيب تيموهين . اشاح وعبس ، كأنما يقول إن كل ما قاله دولوهوف وما يمكن أن يقوله معلوم له منذ امد طويل ، وإن ذلك اسأمه إلى حد السقام منذ زمن بعيد ؛ فليس هذا هو المطلوب إطلاقا . واستدار متوجها إلى المركبة.

وانحل اللواء إلى سرايا وتوجه صوب ما خصص لايوائهم على مسافة غير بعيدة من براوناو ، حيث يأملون ان يجدوا احذية وملابس ويخلدوا إلى شىء من الراحة بعد رحلتهم الشاقة .

وقال قائد اللواء الذى لحق بالسرية الثالثة راكبا حتى حاذى النقيب تيموهين الذى كان يسير فى مقدمتها :

— لا تحمل لى ضغنا يا بروهور إجناتتشى !

وكان وجه قائد اللواء يطفح بشرا وسرورا بعد التفتيش الناجح لم يستطع كتمانهما واردف :

— إنها لخدمة القيصر .. ولا حيلة فى هذا .. ولابد احيانا ان يكون المرء جادا دقيقا عند التفتيش . وانا اول من يعتذر ، فانت تعرفنى .. وهو قد سر كثيرا .

ومد يده إلى نقيبه الذى قال :

— اطلاقا يا جنرال .

وازداد احمرار انفه وابتسم فكشفت ابتسامته عن فقد سنيه الاماميين بضربة من كرنوفة بندقية فى معركة اسمعيل .

— وقل لدولوهوف انى لن انساه ، فلا يقلق بهذا الخصوص . وارجوك ان تحيطنى علما بسلوكه . والحق انى كنت انوى ان استوضح هذا ..

— إنه دقيق جدا فى قيامه بواجباته يا صاحب السعادة .. ولكنه غريب الاطوار .

— كيف هذا ؟ وبأى وجه ؟

— أنه مختلف عن الباقين باختلاف الأيام يا صاحب السعادة . ففى يوم ما تجده معقولا مهذبا طيبا ، ثم إذا به فجاة يتنمر كالوحش الضارى .. حتى أنه كاد يقتل يهوديا فى بولندة .

— طيب . طيب . مع هذا يجب ان يعطف المرء على شاب فى محنة ، فله اقارب كبار كما تعلم ، ولذا عليك ان ..

فابتسم تيموهين ابتسامة تدل على انه فهم مراد رئيسه فى هذا الصدد وقال :

— مفهوم يا صاحب السعادة .

وركب الجنرال وسط الصفوف إلى ان وصل إلى دولوهوف وقال له :

— عند اول عملية قد تستعيد علامات رتبتك .

فالتفت إليه دولوهوف ولم يقل شيئا . ولم يحدث اى تغير فى خطوط ابتسامة فمه الساخرة . واستطرد الجنرال بصوت يسمعه كل الجنود :

— كل شىء على ما يرام إذن . كأس من البراندى منى لكل واحد منكم . واشكركم جميعا . والحمد لله كثيرا ...

ودار بحصانه حول السرية ثم ركض إلى سرية اخرى فقال تيموهين للملازم الذى كان يسير بجواره :

— انه حقا رجل طيب ، ويستطيع المرء أن يعمل تحت امرته فى يسر .

فقال الملازم ضاحكا :

— انه ملك الكوبة ! هذا خير ما يقال عنه .

فقد كانت كنية قائد اللواء « ملك الكوبة » ، وهى ورقة « الشايب » التى علامتها القلب (فى اوراق الكوتشينة) .

وسرى سرور الضباط بعد التفتيش إلى الجند ، فمضت السرايا تمشى بمرح، واصواتهم تتعالى بالثرثرة من كل جانب:

— اليس يقال ان كتوزوف اعور ؟

— بلى ! احدى عينيه عمياء تماما .

— لا تقل هذا ! انه احد بصرا منك . الم تر كيف نظر إلى احذيتنا وامتعتنا ...

ـ الحقّ يا « دفعة » أننى قلت فى نفسى عندما نظر إلى قدمى ...

ـ والجنرال الآخر كان نمساويا ، فكأنه مطلى بالطباشير . أبيض كالدقيق . أوكد لك أنهم يجلونه كما نجلو نحن بنادقنا .

ـ قل لى يا «فيديشو»! أقال شيئا عن متى تبدأ المعارك؟ لقد كنت أقرب إليه . ويقال أن بونابرت نفسه كان فى براوناو !

ـ بونابرت ! ما هذا الهراء ؟ أن البروسيين هم الذين تمردوا ، ويحاول النمساويون تهدئتهم . ومتى هدأوا بدأت الحرب مع بونابرت . وصاحبنا هذا يزعم أن بونابرت فى براوناو ! واضح أن الفتى أبله . وخير لك أن تفتح أذنيك لا فمك !

ـ ويح أمناء التموين هؤلاء .. أن السرية الخامسة صارت الآن فى القرية ويقومون بطهو عصيدتهم .. ونحن لم نصل بعد .

ـ أعطنا بسكويته يا صديقى !

ـ وهل أعطيتنى أنت طباقا بالأمس ؟ وهو كذلك يا فتى ! كان الله معك !

ـ كان ينبغى أن يقفوا للراحة ، وإلا تعين علينا السير أربعة أميال أخرى بدون أكل .

ـ لقد كان الألمان كرماء بمركباتهم ، فكان التقدم سهلا .

ـ أن الناس هنا يا أولاد مجردون من كل شىء . أما



ودار بحصانه حول السرية ثم ركض إلى سرية أخرى ...

هناك فكان الناس كلهم بولنديين خاضعين للتاج الروسى . والآن فنحن فى ارض الالمان الخلص .

وصاح النقيب :

ــ ليمش المنشدون فى المقدمة !

ومن مختلف الصفوف برز إلى المقدمة نحو عشرين رجلا ، يقودهم الطبال الذى استدار ليواجه الجوقة وجعل يلوح بذراعه ، وبدأ فى عزف اغنية من اغانى الجند اولها : « كانت الشمس قد بزغت لتوها » وتنتهى ب « لذا يا فتيان سنزحف إلى المجد مع الأب كامنسكى » .. وكانت هذه الأغنية قد نظمت فى تركيا وها هى الآن تنشد فى النمسا مع تغيير اسم كامنسكى إلى اسم كوتوزوف !

وجعل الطبال وهو جندى وسيم نحيل فى سن الأربعين ينغم الكلمات الأخيرة بلهجة عسكرية وهو يحرك ذراعيه كانه يرش شيئا على الأرض ، وهو ينظر إلى جوقة الجند مقطبا . ولما اطمأن إلى ان كل العيون مركزة عليه ، جعل يرفع ذراعيه كمن يرفع بكلتا يديه شيئا ثمينا فوق رأسه . ثم بعد لحظة انزل ذراعيه فجأة فى حركة مستميتة كأنما ليلقى عنه ما كان يحمله :

« آه ! عتبة كوخى

كوخى الجديد ... »

والتقط العشرون صوتا هذه اللازمة ، وتقدم ضارب الصنج رغم امتعته الثقيلة وسلاحه واستدار ليمشى بظهره فى مواجهة السرية هازا كتفيه وكأنه يهدد شخصا ما بصنجه .

وانتظمت خطوات الجند مع ايقاع الاغنية مطوحين أذرعهم . ومن وراء السرية ترامت قعقعة العجلات واللوالب ووقع حوافر الخيل . فقد كان كوتوزوف وبطانته عائدين إلى المدينة ، واشار القائد العام إلى الجنود أن ينطلقوا على سجيتهم . وبدا انه وكل بطانته كانوا مسرورين بصوت الغناء ومنظر الجندى المتراقص والجنود السائرين بمرح . وفى الصف الثانى من الجناح الأيمن لمحوا الجندى الأزرق العينين دولوهوف وهو يرمق وجوه هؤلاء الراكبين وكأنه يرثى لكل من ليس سائرا فى الصفوف . وكان ضابط الهوسار فى بطانة كوتوزوف الذى قلد جنرال اللواء قد وثب من العربة وذهب إلى دولوهوف . وكان اسمه زركوف ، وفى وقت ما كان من الزمرة المرحة ببطرسبرج التى كان يتزعمها دولوهوف . وكان قد التقى به فى الخارج وهو « نفر » ولم يجد حينئذ من المناسب ان يبدى معرفته به ، اما الآن بعد حديث كوتوزوف مع دولوهوف ، فها هو قد جاء يخاطبه بمودة الصديق القديم . وقال وسط ضجة الأغنية :

ــ يا صديق فؤادى . كيف حالك ؟

فأجابه دولوهوف ببرود !

ــ كيف حالى ؟ كما ترى !

وابرزت الأغنية المرحة النكهة الخاصة للهجة زركوف المرحة وأجابه دولوهوف ببروده المتعمد :

ــ وكيف أحوالك مع ضباطك ؟

ــ على ما يرام . فهم طيبون ، ولكن كيف ادخلت نفسك فى زمرة اركان الحرب ؟

— الحقت باركان الحرب .. فى مهمة !

وساد الصمت بينهما .

وتوالت الأغنية : « لقد اخذت معى بازى ، واطلقت سراحه من فوق كمى ! » مثيرة بذلك إحساسا بالشجاعة والمرح . ولا شك ان حديثهما كان من المحتمل ان يكون مختلفا لو لم يتبادلاه اثناء تلك الأغنية .. وسأل دولوهوف :

— أصحيح ان النمساويين هزموا ؟

— الله أعلم . هكذا يقولون !

فقال دولوهوف باقتضاب يناسب ايقاع النغمة :

— يسرنى هذا !

— تعال عندنا فى إحدى الأمسيات . وسنلعب لعبة « فارو » !

— هل معكم وفرة من النقود إلى هذا الحد ؟

— يجب ان تاتى .

— لا استطيع فقد اقسمت على هذا ! ولن اشرب الخمر او اقامر قبل ترقيتى .

— ولكن هذا سيحدث بعد اول عملية ..

— عندئذ سنرى !

وصمتا مرة اخرى . ثم قال زركوف :

— تعال إن احتجت إلى شىء . فالذين فى أركان الحرب يستطيعون اسداء النفع دائما ...

فابتسم دولوهوف ابتسامة كالحة وقال :

— لا تتعب نفسك . فما اريده لن اطلبه من احد ، بل سآخذه بنفسى !

— آه ، إنما اردت فقط ...

— إلى اللقاء .

— إلى اللقاء .

« وانطلق الباز حرا إلى بعيد . إلى وطنه » ..

وانصرف زركوف وركب جوادا ركض به إلى المركبة ، على ايقاع الأغنية .

— ٣ —

على اثر عودة كوتوزوف من العرض وفى صحبته الجنرال النمساوى ذهب إلى حجرته الخاصة واستدعى معاونه وطلب منه ان يوافيه بأوراق معينة لها علاقة بحالة القوات التى وصلت حديثا ، وايضا بخطابات تلقاها من الارشيدوق فرديناند الذى كان يقود الجيش فى الجبهة . وحضر الأمير اندريه بولكونسكى بالأوراق المطلوبة إلى الحجرة التى كان كوتوزوف جالسا فيها مع عضو القيادة الالمانية وامامهما على المنضدة خطة العمليات . والتفت كوتوزوف إلى بولكونسكى وقال « آه ! » وكانه يدعو معاونه بتلك الكلمة للانتظار ثم واصل حديثه بالفرنسية ، بنبرة لطيفة رشيقة ترغم المرء على الاصغاء لكل كلمة يتفوه بها : وكان واضحا ان كوتوزوف يصغى لصوته بكل تلذذ .

— لا يسعنى ان اقول الا كلمة واحدة ، وهى ان الامر لو كان متوقفا على رغباتى الشخصية ، لكانت رغبة جلالة

الإمبراطور فرنسيس قد نفذت منذ وقت طويل ، ولكنت انضممت إلى الارشيدوق منذ امد بعيد . وصدقنى وانا اقسم بشرفى انه بالنسبة لى شخصيا كان اروح لنفسى ان اسلم القيادة العليا للجيش إلى جنرالات اكثر منى خبرة ومهارة ممن تزخر بهم النمسا ، وبذلك القى عنى كل هذه المسئولية الثقيلة . ولكن الظروف اقوى منا كثيرا يا جنرال .

وابتسم كوتوزوف ابتسامة كانها تقول :

— انت حر تماما فى الا تصدق قولى هذا . فذلك عندى سيان . ولكنك لا تملك دليلا على عدم صدقى . وهذا هو المهم !

وبدا على الجنرال النمساوى عدم الاقتناع، ولكن لم تكن له حيلة فى الرد على كوتوزوف بنفس اللهجة ولكن بصوت شكس حرج مباين تماما لنعومة الفاظه المتملقة :

— بالعكس ! ان مشاركة فخامتكم فى العمليات المشتركة موضع تقدير كبير من صاحب الجلالة ولكننا نعتقد ان التاخير الحالى يفوت على القوات الروسية الباسلة وقائدها العام اكاليل الغار التى تعودوا على الفوز بها فى العمليات .

وواضح انها عبارة كان قد اعدها فى ذهنه سلفا ، فانحنى كوتوزوف وقال بنفس الابتسامة :

— ولكنى مقتنع بناء على الخطاب الاخير الذى شرفنى به سمو الارشيدوق فرديناند ان القوات النمساوية — فيما اتصور — تحت قيادة قائد موهوب كالجنرال ماك ، لابد قد حققت نصرا حاسما ولم تعد بحاجة إلى عون من جانبنا !

فتجهم الجنرال . ومع انه لم تكن هناك انباء مؤكدة عن هزيمة النمساويين إلا انه كانت هناك ظروف كثيرة مؤيدة لهذا الاعتقاد ، لذا بدا كلام كوتوزوف عن نصر نمساوى وكأنه غمزة هزء . إلا ان كوتوزوف ابتسم بدماثة ليوحى بانه على حق فى هذا الظن . والواقع ان الخطاب الاخير الذى وصله من جيش الجنرال ماك كان يتحدث عن نصر ، وعن امتياز الوضع الاستراتيجى للجيش . وقال كوتوزوف للأمير اندريه « اعطنى ذلك الخطاب » والتفت إلى ضيفه وقال :

— هاك ! تكرم بالقاء نظرة .

وبابتسامة ساخرة على ركنى فمه راح يقرا بالألمانية الفقرة التالية من خطاب الارشيدوق :

« لدينا قوة متجمعة من قرابة ٧٠٠٠٠ رجل لمهاجمة العدو وقهره إذا ما عبر نهر ليتش » وبما اننا سادة (اولم) ، فلا يمكن ان نفقد مزية البقاء سادة ايضا لضفتى الدانوب ، واما إن لم يعبر الاعداء نهر ليتش، ففى وسعنا ان نعبر الدانوب فى اى لحظة وننقض على خط مواصلاتهم ، ثم نعود إلى عبور الدانوب من موضع ادنى ونقاوم هدف الاعداء إن ارادوا ان يتحولوا بكل قوتهم ضد حليفنا المخلص ، وبذلك ننتظر بشجاعة اللحظة التى يكون فيها الجيش الإمبراطورى الروسى مستعدا ، ويتسنى لنا عندئذ بسهولة ان نتحين الفرصة ونستعد لإنزال الهزيمة التى يستحقها هذا العدو .

وختم كوتوزوف هذه الفقرة بزفرة ونظر بامعان وتلطف إلى عضو القيادة النمساوى ، الذى قال بلهجة من يريد

الخلاص من المجاملات الهازلة ليتكلم فى صميم الموضوع ، ولم يتمالك نفسه ان ينظر إلى المعاون :

ـ ولكنك تعرف يا صاحب الفخامة الوصية الحصيفة التى تامرنا ان نتاهب لأسوأ النتائج .

فقاطعه كوتوزوف وهو يلتفت ايضا إلى الأمير اندريه :

ـ عفوك يا جنرال . اعطنى يا ولدى العزيز كل تقارير طلائعنا الاستكشافية من كزلوفسكى ، وهاهما خطابان من الكونت نوستيتز ، وهاهو خطاب من سمو الارشيدوق فرديناند . وهاك خطابا آخر . استلخص من كل هذا مذكرة فرنسية واضحة مبينا بها كل المعلومات التى حصلنا عليها عن تحركات الجيش النمساوى . وبعد الفراغ من التقرير اطلع عليه صاحب السعادة .

فانحنى اندريه معربا عن فهمه منذ اول كلمة ليس لما قاله كوتوزوف فقط بل ايضا كل ما اراد قوله . وجمع الأوراق ، وانحنى انحناءة شاملة ، وخطا بخفوت فوق البساط وخرج إلى قاعة الانتظار .

ومع ان الأمير اندريه لم يغادر روسيا الا منذ وقت قصير ، إلا انه تغير كثيرا . فلم يكد يبقى اثر تقريبا فى تعبير وجه وإيماءاته وخطواته كما كان يعهده فيه الناس من تصنع وسأم وتراخ فليس لديه الآن وقت للتفكير فى الانطباع الذى يتركه فى الآخرين ، بل هو منهمك فى العمل الذى وجده مستحبا وشائقا معا ، ولذا ينم محياه على رضاه عن نفسه وعمن حوله . وصارت ابتسامته ونظرته اخف ظلا واكثر جاذبية .

وكان كوتوزوف الذى لحق به فى بولنده قد استقبله بكل مودة ، ووعد الا ينساه ، واختاره من بين معاونيه وصحبه معه إلى فيينا وعهد إليه بأخطر المهام . ومن فيينا كتب كوتوزوف إلى رفيق سلاحه القديم والد الأمير اندريه قائلا :

ـ ابنك يبشر بأن يكون ضابطا بمعنى الكلمة يقيم سمعته بجده وحزمه وامانته . وانى اعد نفسى محظوظا لحصولى على مثل هذا المساعد .

وبين اركان حرب كوتوزوف وبين زملائه الضباط ، وفى الجيش عموما كانت للأمير اندريه ـ مثلما كان له من قبل فى مجتمع بطرسبرج الراقى ـ شهرتان متناقضتان . فالأقلية كانوا يعدون الأمير اندريه كائنا مختلفا عنهم وعن سائر الرجال ، ويتوقعون منه عظائم الأعمال ، ويصغون له ويتحمسون للثناء عليه ويقلدونه . ومع هؤلاء كان الأمير اندريه صريحا ولطيفا . اما الأغلبية فلم يحبوه ويرونه مثيرا للاشمئزاز وغير مستحب . ولكنه كان مع هؤلاء ايضا يعرف كيف يسلك بحيث يحترمونه ويخشونه .

ولما خرج الأمير اندريه من حجرة كوتوزوف إلى قاعة الانتظار ذهب ومعه اوراقه إلى زميله المعاون المنوب كزلوفسكى ، الذى كان جالسا عند النافذه و بيده كتاب ، وساله كزلوفسكى :

ـ ماذا هناك يا أمير ؟

ـ لقد طلب منى ان اعد مذكرة عن سبب عدم تحركنا إلى الامام .

ــ ولماذا لم نتحرك ؟

فهز الأمير اندريه كتفيه . وساله كزلوفسكى :

ــ الم تصل انباء من ماك ؟

ــ لا .

ــ لو صح انه هزم لكانت الأنباء قد وصلت .

فقال الأمير اندريه .

ــ على الأرجح .

واتجه صوب الباب ليخرج ، لولا انه التقى فى طريقه برجل طويل دخل فى هذه اللحظة قاعة الاستقبال وصفق الباب . وواضح ان هذا الغريب الذى وصل لتوه جنرال نمساوى فى سترة طويلة عليه ضمادة تحيط براسه ، وعلى عنقه وسام ماريا تيريزا . فوقف الأمير ثابتا ، وساله ذلك الجنرال بلهجة المانية فجة وهو يتلفت حواليه :

ــ اهنا القائد العام كوتوزوف ؟

وعلى الفور اتجه إلى باب الحجرة الخاصة ، فاسرع كزلوفسكى إلى الجنرال المجهول وسد عليه طريقه إلى الباب قائلا :

ــ القائد العام مشغول . اسمك من فضلك كى اذكره له .

فنظر الجنرال المجهول بازدراء إلى قامة كزلوفسكى القصيرة كالمتعجب من جهلهم هويته ، فكرر كزلوفسكى بهدوء قوله :



فأسرع كزلوفسكى إلى الجنرال المجهول وسد عليه طريقه إلى الباب قائلًا :
ــ القائد العام مشغول . اسمك من فضلك كى أذكره له ..

— القائد العام مشغول .

فتقبض وجه الجنرال وارتعشت شفتاه ، واخرج دفتر مذكرات وخط فيه شيئا بالقلم الرصاص وقطع الورقة وقدمها إلى كزلوفسكى . وبخطى سريعة اتجه إلى النافذة وانحط على كرسى ، وشمل الموجودين فى القاعة بنظرة منه كمن يتساءل فيم تحديقهم فيه . ثم رفع الجنرال راسه ومد عنقه للأمام كمن ينوى ان يقول شيئا ، ولكنه سرعان ما بدا فجاة يهمهم لنفسه بصوت غريب لم يلبث أن قطعه فجاة . وانفتح باب الحجرة الخاصة ، وبرز كوتوزوف ، فانحنى الجنرال المعصوب الراس كمن يفر من خطر ، وخطا نحو كوتوزوف وهو يحرك ساقيه النحيلتين بسرعة . وقال بالفرنسية بصوت متكسر .

— ها أنت ترى ماك المنكود !

وظل وجه كوتوزوف وهو واقف فى فرجة الباب لا ينم على شيء عدة ثوان . ثم لاح على وجهه عبوس عابر كأنه موجة لم تلبث ان انحسرت عن جبينه فعاد املس . واحنى راسه باحترام . وأغمض عينيه واشار إلى ماك ليتقدمه إلى الداخل من غير أن ينطق بكلمة . ثم اغلق الباب وراءه .

وبذا كانت الشائعة التى دارت على الألسن قبل هذا عن هزيمة النمساويين واستسلام الجيش باكمله فى (اولم) قد بأتت محققة . وفى مدى نصف ساعة كان المعاونون قد بعثوا فى كل الاتجاهات حاملين الأوامر ، وصار من الجلى ان القوات الروسية التى ظلت حتى هذا الحين بلا حراك لابد ان تلاقى

العدو عن قريب . وكان الأمير اندريه أحد ضباط اركان الحرب القلائل الذين ينصب اهتمامهم على السير العام للحرب ، فلما رأى ماك وعرف تفصيلات اندحاره أدرك انهم خسروا نصف الحرب ، وادرك كل صعوبات وضع القوات الروسية . وتصور لنفسه بكل وضوح ما سيواجهه الجيش ، والدور الذى يحتمل ان يقوم به فى العمليات المرتقبة . ولم يسعه ان يغالب شعورا بالفرح الغامر لمجرد التفكير فى الهوان الذى لقيته النمسا المغرورة بنفسها ، وتوقع ان يرى ربما فى مدى اسبوع واحد ويشارك فى التقاء الروس بالفرنسيين ، وهو اول التقاء لهما منذ عهد سيفوروف . بيد انه كان يخشى عبقرية بونابرت التى قد يتضح انها اقوى بأسا من شجاعة الجيوش الروسية . وفى الوقت نفسه لم يطق مواجهة فكرة انكسار بطله الأثير ووصمته بالخزى .

وتحت تأثير هذه الأفكار اتجه الأمير اندريه إلى حجرته الخاصة ليكتب إلى ابيه . الذى كان يرسل إليه فى كل يوم خطابا . وفى الدهليز قابل نسفتسكى الذى كان يشاركه حجرته . ووجد معه الرجل الفكه الهازل زركوف ، وكانا كالعادة يضحكان من شيء ما . ولاحظ نسفتسكى شحوب وجه الأمير اندريه ولمعان عينيه فسأله :

— فيم كل هذا الاكتئاب ؟

— ليس هناك ما يبهج .

وفى نفس هذا الوقت اقبل نحو الثلاثة من الطرف الآخر

للدهليز جنرال نمساوى اسمه شتراوخ، وكانت مهمته فى هيئة اركان جرب كوتوزوف ان يشرف على تموين الجيش الروسى . وكان فى صحبته ضابط القيادة النمساوى الذى وصل فى الليلة السابقة . وكان فى الدهليز الواسع فسحة من المكان تسمح للجنرالين بالمرور بجوار الضباط الثلاثة . ولكن زركوف جذب ذراع نسفتسكى إلى الوراء ، وصاح بصوت لاهث :

— انهما قادمان ! . . انهما قادمان ! افسحوا الطريق ! افسحوا الطريق !

وتقدم الجنرالان وكلهما رغبة فى تجنب هذا التكريم الثقيل الوطاة . ولكن وجه زركوف الهازل اكتسى فجاة بابتسامة سرور غامر لايستطيع كبحه وتقدم خطوة وقال بالألمانية مخاطبا الجنرال النمساوى :

« ياصاحب السعادة ! لى الشرف ان اهنئك ! » .

وانحنى وراح يقلد رقص الأطفال ويحك الأرض باحدى قدميه ثم بالأخرى ! ونظر إليه الجنرال الآخر عضو القيادة بصرامة ، ولكنه راى جدية الابتسامة البلهاء فزر عينيه إلى اعلى واظهر الاصغاء له ، فاستطرد زركوف :

— لى الشرف ان اهنئكما ! فالجنرال ماك قد وصل سالما اللهم إلا من جرح يسيرها هنا !

واشار وهو يبتسم ابتسامة عريضة إلى راسه فعبس الجنرال واستدار وانصرف ثم قال بالألمانية بعد عدة خطوات فى غضب شديد :

— رباه ! ياله من احمق !

وضحك نسفتسكى والقى بذراعيه حول الأمير اندريه ، ولكن بولكونسكى ازداد شحوبا ، ودفعه بغضب واستدار إلى زركوف ، لأن الضيق الذى أصابه لمراى ماك ، وانباء هزيمته وتفكيره فيما سيواجه الجيش الروسى ، وجد له متنفسا بمناسبة فرحة زركوف . وشرع يقول وفكه الأسفل يرتجف قليلا :

— إن كنت يا سيدى تحب ان تكون مهرجا ، فليس فى مقدورى ان امنعك من ذلك . ولكنك إذا تجاسرت على القيام بدور الأحمق فى حضورى مرة أخرى ، فسأعلمك كيف يكون حسن السلوك !

واخذ نسفتسكى وزركوف لهذا الانفجار فجعلا يحملقان فى بولكونسكى ، وقال زركوف !

— لم اصنع شيئا إلا انى هنأتهما .

فصاح بولكونسكى وهو ياخذ بذراع نسفتسكى ويبتعد :

— لست أمزح معك . اسكت من فضلك !

فلم يسع زركوف أن يحير جوابا . وسأل نسفتسكى محاولا تهدئته :

— ما المسألة يا فتاى العزيز ؟

فوقف بولكونسكى لفرط انفعاله وقال بالفرنسية :

— ما المسألة ؟ يجب ان تدرك اننا إما ان نكون ضباطا يخدمون قيصرهم وبلادهم ويفرحون لنصر القضية العامة ويحزنون لاندحارها ، وإما ان نكون مرتزقة لا اهتمام لهم ولا مصلحة فى قضية مولاهم . لقد ذبح اربعون الفا وتم

تدمير جيش حلفائنا ، ثم تجد هذا مدعاة للضحك .. وقد يسوغ هذا من شخص تافه كالذى صادقته ، ولكنه لا يليق بك انت ! فلا احد إلا غلمان المدارس يمكن أن يجد مسلاة فى هذا ...

ولاحظ أن زركوف كان يقف على مسمع منه ، وانتظر ليرى ما يكون رد عازف البوق هذا . لكن عازف البوق استدار وغادر الدهليز .

— ٤ —

وكان لواء بفلو جرادسكى للهوسار معسكرا على مبعدة ميلين من براوناو . وكانت الكتيبة التى يقوم فيها نيقولاى روستوف بحمل الراية تأوى إلى قرية ألمانية هى « بلزينيك » وكان قائد الكتيبة هو النقيب دينزوف المعروف فى أوساط الخيالة كلها باسم فاسكا دينزوف قد اختص بأحسن مسكن فى القرية ، وكان حامل الراية روستوف يشاركه السكن منذ لحق باللواء فى بولندا . وفى الثامن من اكتوبر ، وهو اليوم الذى كانت القيادة كلها قائمة قاعدة لأنباء اندحار ماك . كان روتين الحياة ماضيا على ما هو عليه بين ضباط هذه الكتيبة . فدزينوف الذى ظل طول الليل يخسر فى لعب الورق لم يكن قد عاد إلى سكنه بعد عندما ركب روستوف مبكرا جدا عائدا من بعثة لاحضار العلف . وركب روستوف فى بزة حامل الراية إلى الدرج . وطفر بحركة شابة وانتصب قائما فى الركاب كمن لا يريد مفارقة الحصان ، واخيرا وثب إلى الأرض ونادى

« المراسلة » ، وقال للهوسار الذى اندفع إلى الحصان فى لهجة المودة القلبية المرحة التى يتعامل بها الطيبون مع الجميع ! عندما يكونون سعداء :

— بوندارنكو يا عزيز قلبى ! اجعله يمشى جيئة وذهابا .

فأجابه الروسى الصغير وهو يهز راسه فى سرور :

— سمعا وطاعة يا صاحب السعادة .

— خذ بالك جيدا . وأحسن تمشيته .

واسرع هوسار آخر إلى الحصان ايضا . ولكن بوندارنكو كان قد اخذ بزمامه . وكان واضحا أن حامل الراية سخى بالعطايا ، وان القيام على خدمته مربح . وربت روستوف على عنق الجواد ثم على كفله وتلكأ واقفا فوق الدرج وقال لنفسه :

— ما اجمله . ولسوف يكون حصانا رائعا !

وابتسم وقبض على سيفه ثم صعد الدرج ركضا وهو يصلصل بمهمازه . واطل الالمانى الذى كانوا يسكنون بيته من حظيرة البقر مرتديا سترة طويلة بلا كمين وطاقية مدببة وبيده شوكة دراس كان يجرف بها الروث . واشرق وجه الالمانى بمجرد ان راى روستوف وغمز بمرح مكررا قوله :

— صباح الخير ! صباح الخير !

وكان واضحا انه مسرور بالترحيب بالشاب . فقال روستوف بنفس الابتسامة الأخوية التى كانت لا تفارق وجهه المتحمس :

— ابدات العمل مبكرا هكذا ؟ يعيش النمساويون ! يعيش الروس ! مجدا للامبراطور الكسندر ! مكررا هذه

العبارات التى كثيرا ما سمع الألمانى يقولها ، فضحك الألمانى وخرج من الحظيرة وخلع طاقيته ولوح بها فوق راسه هاتفا :

— ويعيش العالم اجمع !

فلوح روستوف بقلنسوته ايضا فوق راسه وصاح ضاحكا :

— ومرحى ومجدا للعالم اجمع !

مع انه لم يكن هناك سبب خاص يدعو لزئاط الألمانى الذى ينظف حظيرته او زئاط روستوف الذى كان عائدا من التموين بالعلف ، إلا ان كلا منهما نظر إلى الآخر بنشوة ومحبة اخويه وهز راسه اعرابا عن اعزازهما المتبادل ، وافترقا باسمين ، فعاد الألمانى إلى حظيرته وعاد روستوف إلى الكوخ الذى يشارك فيه دزينوف ، وسال لفروشكا خادم دزينوف الخاص المعروف للواء كله بأنه وغد :

— اين مولاك ؟

— لم يعد صاحب السعادة منذ خرج فى المساء . ولابد انه ظل يخسر طول الليل . فأنا اعرف انه لو كسب لعاد مبكرا إلى البيت ليباهى بحظه الحسن . اما وهو لم يعد فى الصباح فهو خاسر . ولسوف يعود مائجا بالغضب . أاحضر القهوة ؟

— نعم احضرها .

— ها هو قادم . فلنستعد للمتاعب !

فاطل روستوف من النافذة ورأى دينزوف عائدا إلى البيت . وهو رجل قصير احمر الوجه ، له عينان سوداوان لامعتان وله سالفتان وشعر اسود ، وعليه سترة غير مزررة

وبنطلون قصير وعلى مؤخرة راسه قلنسوة هوسار متكبرة ، يمشى واجما مطرقا . ولما اقترب من الدرج صاح بصوت عال غاضب :

— لافروشكا ! تعال خذه يا غبى !

— حاضر . سآخذه .

وقال دنيزوف وهو يدخل إلى الحجرة لروستوف .

— اصحوت مبكرا هكذا ؟

— منذ وقت طويل ، وذهبت لجلب العلف والدريس ورايت الآنسة ماتيلد !

— حقا ؟ اما انا فقد ظللت اخسر طول الليل يا ولدى كأى ابن كلب . حظ نحس ! نحس فظيع ! فبمجرد أن انصرفت أنت ادبر عنى الحظ . ما هذا ؟ شاى ؟

وغض دنيزوف وجهه كأنه يبتسم فكشف عن أسنانه القصيرة القوية ، وبدأ بأصابعه القصيرة يمشط للوراء شعره الكثيف الأسود المتداخل كالغابة . واردف وهو يحك وجهه بيديه :

— ركبنى الشيطان فذهبت إلى ذلك الفار (كنية احد الضباط) . تصور انه لم يعطنى ورقة واحدة صالحة ! ولا واحدة !

وتناول دنيزوف الغليون المشتعل الذى قدمه له الخادم وراح يدق به الارض ويصيح :

— وراح يتحدانى فى كل الادوار ويدحرنى !

وانتهت حركاته ببعثرة الشرر من الغليون وكسره ثم رمى

به بعيدا ، وسكت فجأة واخذ يحدق فى روستوف بعينيه السوداوين اللامعتين وقال :

— وليت كانت هناك نساء ! ولكن لا شيء هنا غير الشراب . آه ليتنا نبدأ القتال سريعا .. هيه ! من هناك ؟

وصاح فى اتجاه الباب وقد سمع وقع حذاء غليظ ثقيل وصليل مهماز يصعد الدرج ، وصوت سعلة محترمة . وقال لفروشكا :

— انه الرقيب !

فغض دزينوف وجهه اكثر من ذى قبل وقال وهو يرمى بكيس فيه بضع قطع ذهبية :

— يا للازعاج ! قم يا روستوف ، يا ولدى العزيز ، بعد ما تبقى وضع الكيس تحت الوسادة . ثم خرج لملاقاة الرقيب . فأخذ روستوف النقود وراح يصنفها ثم احصاها . وسمع صوت دنيزوف يقول من الحجرة الاخرى :

— صباح الخير يا تليانين ! لقد « نظفونى » الليلة الماضية .

واجابه صوت رفيع :

— واين حدث هذا ؟ عند بيكوف ؟ عند الفأر ؟ كنت اعلم هذا .

ثم دخل إلى الحجرة الملازم تليانين ، وهو ضابط قصير فى نفس الكتيبة ، فوضع روستوف الكيس تحت الوسادة وهز اليد الرطبة التى قدمها له تليانين الذى كان لسبب ما قد نقل من الحرس قبل رحيل اللواء مباشرة ، وكان سلوكه فى اللواء

حسنا جدا إلا انه لم يكن محبوبا ، وروستوف على الخصوص لم يكن يطيقه ولا يستطيع كتمان نفوره من هذا الضابط الذى قال :

— وكيف حال « الرخ » ايها الخيال الشاب ؟

وكان الرخ جواد ركوب باعه تليانين لروستوف . ولم يكن تليانين ينظر ابدا إلى وجه محدثه . فعيناه دائما التنقل من شيء إلى شيء آخر .. واردف :

— لقد رأيتك راكبا هذا الصباح ..

واجابه روستوف قائلا :

— أنه على ما يرام . حصان جيد .. ولكنه بدأ يعرج بقائمته اليسرى الأمامية .

مع أن الحصان الذى كان قد دفع فيه سبعمائة روبل لم يكن يساوى نصف هذا المبلغ .

— حافره قد انشق ! وليس هذا ذا بال ، سأريك ماذا تصنع به .

— أرجوك .

— سأريك فعلا . وليس هذا سرا خفيا . ولكنك سوف تشعر لى بالعرفان بسبب هذا الجواد .

فقال روستوف متلهفا على الخلاص من تليانين ..

— إذن سأخرج وآمر باحضاره .

وفى الحجرة الخارجية كان دنيزوف مقعيا على العتبة وبيده غليون فى مواجهة الرقيب الذى كان يرفع إليه تقريرا ما . ولما رأى دنيزوف روستوف زر عينيه واشار بابهامه من فوق

كتفه إلى الحجرة التى كان جالسا بها تليانين ، وتجهم وهز رأسه باشمئزاز ، وقال غير مبال لوجود الرقيب :

— إخ ! انا لا احب هذا الشخص !

فهز روستوف كتفيه كأنه يقول : « ولا انا ... ولكن ما العمل ؟ » واصدر امره وعاد إلى تليانين ، الذى كان لا يزال جالسا بالوضع المتراخى الذى تركه فيه روستوف ، وهو يفرك يديه الصغيرتين ، وقال روستوف لنفسه : « ما اكثر الأشكال القذرة فى هذه الدنيا ! » وقال تليانين وهو ينهض قائما بلا اكتراث :

— هل اصدرت اوامرك لاحضار الجواد ؟

— نعم .

— تعال انت ايضا . إنما جئت فقط لأسأل دنيزوف عن امر الامس . هل وصلك الامر يا دنيزوف ؟

— ليس بعد ! ولكن إلى اين انت ذاهب ؟

— ذاهب لأرى هذا الشاب كيف يركب حدوة لحصان .

ونزلا الدرج إلى الاسطبل واراه الملازم كيف يضع العلاج ثم ذهب إلى مقره . ولما عاد روستوف كانت هناك زجاجة فودكا وشىء من السجق على المنضدة وقد جلس إليها دنيزوف وقلمه يحدث صريرا على الورق ، ونظر بوجوم إلى وجه روستوف وقال :

— انى اكتب إليها .

واتكأ بمرفقه على المنضدة والقلم فى يده ، وهو سعيد بأن يتفوه بكل ما ينوى كتابته ، ولذا راح يخبر روستوف بمضمون خطابه . ثم قال :

— ها انت ذا ترى يا ولدى العزيز اننا نظل فى حالة سبات ، مطمورين فى التراب والرماد إلى أن نحب . ومتى احببت صرت إلها وصرت نقيا كما كنت فى اول ايام الخليقة . . من هذا القادم الآن ؟ ارسله إلى الشيطان ! ليس عندى وقت يا « لافروشكا » !

فاقبل لافروشكا غير مهتم بصراخه وقال :

— ومن عساه يكون ؟ انت طلبت منه الحضور بنفسك . إنه الرقيب جاء لأخذ النقود .

فقطب دنيزوف واوشك أن يصيح بشىء ولكنه لم يتكلم ، بل قال لنفسه « يا للازعاج » ثم سأل روستوف كم من النقود بقى فى الكيس .

— سبع قطع ذهبية جديدة وثلاث قطع قديمة .

فصاح دنيزوف للافروشكا :

— لماذا انت واقف هكذا كالصنم ؟ ادخل الرقيب !

فقال روستوف وقد تضرج وجهه بالحمرة :

— ارجوك يا دنيزوف ، خذ النقود منى . فمعى الكثير .

فزمجر دنيزوف :

— أنا لا أحب أن أقترض من أصدقائى !

— ولكنك إن لم تأخذ النقود منى كزميل ، اسأت إلى .

فقال دنيزوف وهو ذاهب إلى فراشه ليأخذ الكيس من تحت الوسادة :

— لا . لا . اين وضعت الكيس يا روستوف ؟

— تحت الوسادة السفلى !

فرمى دنيزوف الوسادتين على الأرض وهو يقول :

— ولكنه ليس هنا ! لا وجود للكيس . هذا شيء غريب .

فقال روستوف وهو يلتقط الوسادتين واحدة بعد الأخرى ويهزهما ، ثم تناول اللحاف وهزه ، ولم يجد شيئا :

— انتظر لحظة .. اتراك اسقطته ؟ . . اترانى نسيت ! ولكنى اعرف انك تحتفظ به دائما تحت راسك ولذا وضعته هنا . اين هو ؟

والتفت إلى لفروشكا الذى قال :

— انا لم ادخل الحجرة . لابد انه موجود حيث وضعته .

— لكنه ليس موجودا ..

— هكذا انت دائما تلقى بالأشياء حيثما اتفق ثم تنساها . لنظر فى جيوبك !

— لا . فانا اتذكر تماما اين وضعته .

ففتش لفروشكا الفراش كله ونظر تحته وتحت المنضدة .

وراح دنيزوف يرقب حركات لفروشكا فى صمت ، ولما رفع لفروشكا يديه بدهشة معربا عن عدم عثوره على شيء فى اى مكان ، التفت إلى روستوف وقال :

— دع عنك الاعيب غلمان المدارس ..

ولما شعر روستوف بوقع نظرات دنيزوف عليه رفع عينيه ثم خفضهما واندفع دمه كله إلى وجهه وعينيه ، ووجد صعوبة فى اخذ انفاسه .. وقال لفروشكا :



فرمى دنيزوف الوسادتين على الأرض وهو يقول :

— ولكنه ليس هنا ! لا وجود للكيس . هذا شيء غريب ..

— لم يكن بالحجرة احد غيركما والملازم . فلا بد ان الكيس هنا فى مكان ما .

فصاح دنيزوف فجاة وقد احتقن وجهه واندفع نحو الخادم متوعدا :

— يا العوبة الشيطان . اجمع همتك وابحث عنه . فلا بد من العثور على الكيس وإلا جلدتك ! ساجلدكم جميعا !

وتحاشت نظرات روستوف دنيزوف ، وشرع يزرر سترته ، ويثبت سيفه ، ويلبس قلنسوته . وهدد دنيزوف وهو يهز المراسلة من كتفيه ويدفع به نحو الحائط :

— اقولُ لكَ لابدَ منَ العثورَ على الكيس .

فقالَ روستوف متجها نحو الباب من غير أن يرفع عينيه :

— دعه وشانه يا دنيزوف . انا أعرف من الذى اخذه .

فكف دنيزوف عن خادمه وفكر لحظة وفهم بداهة تلميح روستوف ، فقبض على ذراعه وقال وهدر بعنف برزت له عروق رقبته وجبهته كالاوتار :

— كلام فارغ ! لا شك انك جننت . ولن اسمح بهذا . الكيس هنا . سأسلخ جلد هذا الوغد وسيجد الكيس هنا !

فقالَ روستوف بصوت مرتعش وهو يتجه إلى الباب :

— انا اعرف من الذى اخذه .

وصاح دنيزوف مندفعا نحو حامل الراية ليمنعه من الخروج :

— وانا اقول لكَ ! إياك ان تتجاسر على هذا .

ولكنَ روستوف حررَ ذراعه منه ورفع عينيه ونظر

بإمعان وغضب إلى دنيزوف وكأنه عدوه الألد . . وقال بصوت مرتجف :

— اتعى ما انت قائل ؟ لم يكن هناك سواى فى الحجرة . فان لم يكن الأمر كذلك ، لماذا إذن . . . ؟

ولم يستطع ان يتم عبارته ، وجرى خارجا من الحجرة . وكان آخر ما سمعه روستوف :

— عليك وعلى الجميع اللعنة !

وذهب روستوف إلى مقر تليانين، حيث قال له المراسلة وقد راى اضطراب وجهه :

— مولاى ليس بالبيت، بل ذهب إلى مقر اركان الحرب . احدث شىء ؟

— لا . لم يحدث شىء !

— إنه قد ذهب لتوه .

وكان مقر هيئة الاركان على مسيرة ميلين ونصف من سلزنيك . ولما كان روستوف لم يجد تليانين فى البيت لذا ركب جواده إلى هناك . وكان فى القرية التى بها اركان الحرب مطعم يرتاده الضباط . وأمام بابه رأى روستوف جواد تليانين . وفى الحجرة الثانية كان الملازم جالسا إلى طبق من السجق وزجاجة نبيذ ، وقال باسما ورافعا حاجبيه :

— ها انت ايضا قد حضرت ايها الشاب .

وقال روستوف « نعم » وكأن هذه الكلمة الواحدة كلفته جهدا جهيدا وجلس إلى اقرب مائدة . ولاذا كلاهما بالصمت ، وكان هناك المانيان وضابط روسى فى هذه الحجرة ،

والكل صامتون ، فلم يكن يسمع إلا صوت الشوك والسكاكين على الأطباق وحركة مضغ الملازم للطعام . ولما فرغ تليانين من غدائه أخرج من جيبه كيسا مزدوجا وباعد باصابعه البيضاء بين الحلقات واخرج قطعة ذهبية ورفع حاجبيه وقدم النقود للنادل قائلا :

— بسرعة من فضلك !

وكانت القطعة جديدة ، ونهض روستوف وتوجه إلى تليانين وقال بصوت لا يكاد يسمع :

— دعنى انظر إلى هذا الكيس .

واعطاه تليانين الكيس وهو زائغ البصر ، إلا ان حاجبيه ما زالا مرفوعين ، وقال وقد ابيض وجهه :

— اجل انه كيس مليح . . . فى وسعك ان تنظر إليه ايها الشاب .

وتناول روستوف الكيس ونظر فيه وفى النقود التى بداخله ، ثم إلى تاليانين . وتلفت الملازم حوله كعادته ، وبدا عليه المرح الشديد فجأة وقال :

— لو ذهبنا إلى فيينا فسأترك كل ما فيه هناك . اما الآن فليس فى هذا المكان التعس ما انفق فيه نقودنا . والآن اعطنيه ايها الشاب ، فأنا منصرف .

ولم ينطق روستوف . فاستطرد تليانين :

— ماذا تنوى أن تصنع ؟ اتتناول أنت أيضا غداءك ؟ انهم يقدمون طعاما جيدا . اعطنيه !

ومد يده وقبض على الكيس ، فافلته روستوف ، واخذه تليانين وبدأ يدسه بعدم اكتراث فى جيب سروال ركوبه ، وهو

رافع حاجبيه وفاتح فمه قليلا كمن يريد ان يقول : « اجل إنى اضع كيس فى جيبى . وهذا أمر غاية فى البساطة ، ولا شأن لأى احد به » ثم قال وهو يتنهد ويرمق من تحت حاجبيه المرفوعين عينى روستوف ، فسرت شرارة كهربية بين عين تليانين وعين روستوف جيئة وذهابا فى آن واحد :

— ثم ماذا ايها الشاب ؟

فقال روستوف وهو يتناول ذراع تليانين ويكاد يجره إلى النافذة هامسا فى اذنه :

— تعال هنا ! هذه نقود دنيزوف ، انت اخذتها !

— ماذا ؟ ماذا ؟ . . . كيف تجسر ؟ . . .

ولكن كلماته رنت كالأنين او ضراعة الصفح اليائسة . وما أن سمع روستوف صوته حتى انزاحت صخرة عن صدره وشعر بالسرور ولكنه فى الوقت نفسه رثى لهذا المنكود الواقف امامه . ولكن تحتم عليه ان يمضى فى الأمر إلى نهايته . وهمهم تليانين وهو يتجه إلى حجرة خالية :

— الله أعلم ماذا يمكن أن يظن الناس ! لا بد لك أن تفسر كلامك . . .

— أعرف هذا . وسأقدم لك الدليل .

فبدأ وجه تليانين يرتجف فى كل عضلة منه ، وعيناه ما زالتا تتحركان بقلق مصوبتين إلى الأرض ولا ترتفعان ابدا إلى مستوى وجه روستوف . وارتفعت شهقاته وقال :

— ارجوك يا كونت ! لا تدمر شابا . . ها هى النقود اللعينة . خذها . والداى شيخان !

ورمى الكيس على المائدة فتناوله روستوف متحاشيا عينى تليانين ، ومن غير ان يتفوه بكلمة غادر الحجرة . ولكنه وقف عند الباب واستدار إليه وقال والدموع فى عينيه :

— يا إلهى ! كيف أمكنك ان تصنع هذا ؟

فقال تليانيان وهو يقترب من حامل الراية :

— يا كونت !

فقال روستوف متراجعا :

— لا تلمسنى ! .. وإن كنت بحاجة إلى النقود خذها !

وألقى إليه بالكيس وجرى إلى خارج المطعم .

— ٥ —

وفى مساء نفس هذا اليوم نشبت مناقشة حامية فى مسكن دنيزوف بين بعض ضباط الكتيبة ، فقد كان نقيب أركان الحرب الطويل يقول مخاطبا روستوف الذى احتقن وجهه :

— ولكنى اقول لك ياروستوف انك ينبغى ان تقدم اعتذارك للكولونيل !

ونقيب اركان الحرب كيرستن له شعر أشيب وسالفتان ضخمتان وملامح غليظة ووجه متغضن ، وقد سبق تنزيل رتبته إلى جندى مرتين لأسباب تتعلق بالشرف ، ثم رد اعتباره مرتين وصاح روستوف :

— أنا لا اسمح لأى احد أن يقول انى كاذب ! لقد قال لى انى كذاب فقلت له بل انت كذاب . وبهذا ينتهى الموضوع .

وله أن يكلفنى بالنوبة يوميا ، بل ويمكنه ان يقبض على ، ولكن ليس بوسع أحد أن يرغمنى على الاعتذار ، لأنه إذا كان وهو الكولونيل يرى مما لا يليق به أن يترضانى ... فقاطعه نقيب أركان الحرب بصوته العريض وهو يربت سالفتيه الطويلتين بهدوء :

— رويدك لحظة يا صاحبى العزيز ، واصغ لى . أنت قلت للكولونيل فى حضور ضباط آخرين أن ضابطا قد سرق ...

— لست الملوم لأن الحديث جرى فى حضور ضباط آخرين .. ولعلى كان ينبغى الا اتكلم أمامهم .. ولكنى لست دبلوماسيا . وهذا هو سبب انضمامى للهوسار ، فقد ظننت اننى لست مطالبا هنا بهذه الاعتبارات الشكلية ، وهو قال لى انى كذاب ... فليقدم لى الترضية !

— هذا كله بديع جدا ، ولا احد يتخيل انك جبان ، ولكن ليس هذا هو لب الموضوع . واسأل دنيزوف أمن المقبول من حامل راية أن يطلب الترضية من كولونيل ؟

وكان دنيزوف يعض على شاربه فى اكتئاب وهو يصغى للمناقشة ، وواضح أنه لا رغبة لديه فى إدلاء دلوه فيها ، ولذا رد على سؤال النقيب بهزة رأس سلبية ، واستطرد النقيب :

— أنت كلمت الكولونيل فى هذا الموضوع القذر فى حضور ضباط آخرين ولذا زجرك بوجدانتش .

وبوجدانتش هو اسم الكولونيل . فرد روستوف قائلا :

— لم يزجرنى . بل قال انى كذاب !

— تماما . وانت قلت له لغوا ، ويجب ان تعتذر . . .

فصاح روستوف :

— بالقطع لا !

فقال نقيب اركان الحرب بجدية وصرامة :

— ما كنت لأتوقع منك هذا . انت لم تخطىء فى حقه هو فقط ، بل فى حق اللواء كله ، وكلنا نلومك بالاجماع . اسمع ! لو انك فكرت فى الامر واستشرت احدا فى التصرف اللائق ، لما ذهبت وارتكبت هذه الجليطة كلها امام الضباط . وماذا كان بوسع الكولونيل عندئذ أن يصنع ؟ اكان يحاكم ذلك الضابط ويصم بالخزى لواءنا بأسره ؟ وهل يتحمل اللواء كله ذلك الخزى بسبب وغد واحد ؟ اتظن هذا ما كان يجب عليه عمله. ليس هذا رأينا . وقد احسن بوجدانتش التصرف ، فقال لك إن ما قلته غير صحيح . وهذا غير مستحب . ولكن ماذا كان بوسعه ان يعمل ؟ لقد جلبت انت هذا على نفسك . وها انت حين يريدون تسوية الامر تستعلى وتتكبر وترفض ان تعتذر ، وتريد للموضوع كله ان يفتضح . وماذا يضيرك ان تعتذر لضابط قديم مبجل ؟ وايا كان من أمر بوجدانتش فهو على كل حال كولونيل قديم مبجل وشهم . انت مستاء لما قيل لك ، ولكنك لا تبالى بخزى يلحق باللواء !

وبدأ صوت نقيب اركان الحرب يرتجف وهو يقول :

— إنك لم تكد تمضى اى مدة فى اللواء ، وإن كنت هنا اليوم ، فغدا ربما نقلت معاونا فى موضع آخر ، ولست تبالى

البتة ان يقول الناس : « فى لواء بافلوجراد لصوص » اما نحن فنبالى بهذا . اليس كذلك يا دنيزوف ؟ السنا نبالى ؟

ولم ينبس دنيزوف ولم يتحرك ، وكانت عيناه اللامعتان ترمقان روستوف بين حين وآخر . واستطرد نقيب اركان الحرب :

— كبرياؤك عزيزة عليك ، ولذا لا تريد أن تعتذر . اما نحن المسنين فنشأنا فى هذا اللواء ، وباذن الله نرجو ان نموت فيه ، فشرف اللواء هو العزيز علينا . وبوجدانوفتش يعلم هذا . اى والله شرف اللواء عزيز علينا ! لست على حق ، ولك ان تستاء ، ولكنى أقول الحق الصراح دائما ! ليس هذا صوابا !

ونهض نقيب الاركان واستدار مبتعدا عن روستوف . وصاح دنيزوف وقد وثب واقفا :

— هذا حق ! اسمع يا روستوف وتعقل !

فاحتقن وجه روستوف ثم ابيض ونقل بصره بين الضابطين وقال :

— لا ياسادة . لا . . . ينبغى الا تظنوا هذا . . . فأنا افهم الموقف تماما . . . لا يسيئوا بى الظن ، فأنا مستعد . . . من اجل شرف اللواء . . . ولكن لم الكلام ؟ . . . سأبرهن على هذا بالأعمال ، فشرف الراية . . . ليكن . . . انا الملوم ! (وطفرت الدموع إلى عينيه) انا المخطىء على طول الخط . وماذا تريدان اكثر من هذا ؟

فصاح نقيب الاركان ، وقد استدار وخبط على كتفه بيده الضخمة :

— هذا هو الصواب يا كونت !

وصاح دنيزوف :

— الم اقل لك ؟ انه فتى رائع !

وعاد النقيب يخاطبه بلقبه اعترافا بجميله :

— هذا افضل يا كونت ! اذهب واعتذر يا صاحب السعادة !

فاحتج روستوف بصوت متوسل :

— إنى مستعد ان اصنع اى شىء ، ولن يسمع منى احد كلمة واحدة . ولكنى وايم الله لا استطيع أن اعتذر . ولا يمكننى أن اقول ما اردت ! كيف اعتذر كغلام صغير يلتمس الصفح ؟

وضحك دنيزوف . وقال كيرستن :

— سيكون وبالا عليك الا تعتذر ، بوجدانوفتش لا ينسى شيئا ، وسيجعلك تدفع ثمن عنادك غاليا .

— والله ما هو بعناد ! ولست استطيع وصف الشعور الذى ينتابنى .

فقال نقيب الاركان :

— كما تحب . . .

وسأل دنيزوف :

— ماذا صنع الوغد بنفسه ؟

— ابلغ أنه مريض . وقد صدر الأمر بشطبه غدا .

فقال نقيب الاركان :

— حالة مرضية ! ولا تفسير آخر للأمر .

فصاح دنيزوف بتعطش للدماء :

— سواء اكان الأمر مرضا او لم يكن ، فخير له الا يطأ عتبتى . وإلا قتلته !

ودخل زركوف الحجرة . وصاح الضباط فى نفس واحد فى وجه القادم :

— كيف وصلت إلى هنا ؟

— إلى الجبهة ايها السادة ! لقد استسلم ماك بجيشه كله !

— هراء !

— لقد رايته بنفسى !

— ماذا ؟ رأيت ماك حيا بذراعيه ورجليه ؟

— إلى الجبهة ! إلى الجبهة ! اعطه زجاجة لقاء هذا النبأ . كيف جئت إلى هنا ؟

— لقد فصلونى من هيئة الاركان العامة واعادونى إلى اللواء بسبب ذلك الشيطان ماك . فقد شكانى الجنرال النمساوى ، لأنى هنأته على وصول ماك . . . ماذا بك ياروستوف ؟ تبدو كما لو كنت خارجا لتوك من حمام ساخن !

ـ لقد كنا فى ورطة هذين اليومين ، يا فتاى العزيز .

ودخل معاون اللواء واكد الأنباء التى جاء بها زركوف، فالأوامر تقضى بابتداء السير فى اليوم التالى .

ـ إلى الجبهة ايها السادة .

ـ الحمد لله ! لقد ظللنا مغروزين هنا اطول مما ينبغى .

- ٦ -

ارتد كوتوزوف إلى فيينا ، مدمرا وراءه الجسور التى على نهر إن (فى براوناو) وعلى نهر تراون (قرب لينز) . وفى ٢٣ أكتوبر عبرت القوات الروسية نهر إينز . ففى منتصف ذلك النهار كانت عربات الحقائب والمدفعية وطوابير القوات تمتد فى خط طويل عبر مدينة « إينز » على كلا جانبى الجسر . وكان النهار دافئا خريفيا وممطرا . وكان المنظر الرحب الذى ينفتح من المرتفعات التى تربض عندها البطاريات الروسية لحراسة الجسر يضيق أحيانا بسبب المطر المائل الذى كانه ستار من الموسلين ثم يتسع مرة أخرى فيمكن فى ضوء الشمس الساطع رؤية الأشياء عن بعد فى وضوح وكأنها مغطاة بطبقة من الطلاء اللامع . وترى المدينة الصغيرة اسفل المرتفعات ببيوتها الصغيرة وسقوفها الحمراء وكاتدرائيتها وجسرها الذى تتدفق على جانبيه القوات الروسية محتشدة معا . وعند منحنى الدانوب ترى السفن والجزيرة وقلعة ذات حديقة مطوقة بمياه نهر إينز وهى تصب فى الدانوب . وشاطىء

الدانوب المنحدر تغطيه أشجار الصنوبر بمساحة من قمم الأشجار الخضراء والاخاديد المائلة للزرقة . ووراء اشجار الصنوبر التى تبدو برية لم تمسسها يد البشر تبرز أبراج صغيرة لدير للراهبات ، وعلى مبعدة فى المقدمة على التل الذى فى الجانب القصى لنهر إينز تمكن مشاهدة داوريات العدو .

وبين المدافع على المرتفع وقف الجنرال قائد المؤخرة واحد ضباط الحاشية يتفحصان المنطقة بمنظار الميدان . وخلفهما بقليل جلس نسفتسكى على جذع مدفع ، وكان القائد العام قد بعث به إلى المؤخرة . وكان القوزاق الذى يصحب نسفتسكى قد ناوله جربندية وقارورة ، فراح نسفتسكى يتحف الضباط بالفطائر والحلوى، فاحاطوا به فى حلقة مرحة ، بعضهم راكعين وبعضهم جالسين متربعى الأرجل كالاتراك ، على العشب الندى . وقال نسفتسكى :

ـ اجل . كان ذلك الأمير النمساوى على صواب عندما بنى قلعة هنا . فهى بقعة بديعة . لماذا لا تأكلون ايها السادة ؟

واجابه احد الضباط مستمتعا بفرصة الحديث مع عضو فى اركان الحرب له هذه الاهمية :

ـ شكرا جزيلا لك يا امير ؟ إنها فعلا بقعة جميلة ، وكان سيرنا بجوار الحديقة مباشرة ورأينا فيها غزالتين ودارا فخمة جدا .

وقال آخر تاق إلى اخذ فطيرة اخرى ، ولكنه خجل فتظاهر بالنظر إلى الريف :

ــ انظر يا امير . ها هى مشاتنا قد وصلت إلى هناك : قرب المرج خلف القرية . وهاهم ثلاثة منهم يجرون شيئا ، إخالهم « سيشطبون » على ذلك القصر تماما !

وكانت لهجته تنم على الموافقة التامة . فقال نسفتسكى وهو يمضغ فطيرة فى فمه الرطب الوسيم :

ــ بلاريب ! . ولكن ما اتمناه هو التسلل إلى داخل هذا . . .

واشار إلى دير الراهبات ذى الابراج الصغيرة الذى يشاهد على سفح التل . وابتسم وقد ضاقت عيناه ولمعتا ، واردف :

ــ اجل . كم يكون هذا متعة من الطراز الاول يا سادة !

وضحك الضباط .

ــ سيتاح لى على الاقل ان اروع الراهبات قليلا ، ويقال ان بينهن فتيات إيطاليات . وانا مستعد بشرف ان انزل عن خمسة أعوام من عمرى فى مقابل هذا !

وقال ضابط اجرأ من الباقين وهو يضحك :

ــ ولابد انهن يشعرن بالسآمة ايضا !

وفى هذه الاثناء اشار ضابط الحاشية الذى كان واقفا فى المقدمة منبها الجنرال إلى شىء ما ، فنظر الجنرال بمنظار الميدان وقال بغضب وهو يرفع منظار الميدان عن عينه ويهز كتفيه :

ــ اجل . الامر كذلك . فهم سيطلقون النار عليهم عند عبور النهر ، فلماذا يتقاعسون هكذا ؟

ولو نظر المرء بالعين المجردة فى ذلك الاتجاه لتبين الاعداء وبطارياتهم التى كان يتصاعد منها دخان ابيض كاللبن . واعقب الدخان صوت طلقة عن بعد ، وكانت قواتنا بلا ريب تسارع إلى مكان العبور ، فنهض نسفتسكى وهو ينفث الدخان وتوجه إلى الجنرال باسما :

ــ افلا تحب يا صاحب السعادة ان تتناول لقمة غداء ؟

وقال الجنرال من غير أن يرد عليه :

ــ ما أسوأ هذا . رجالنا كانوا فى منتهى البطء .

فقال نسفتسكى :

ــ افلا اركب إليهم يا صاحب السعادة ؟

فقال الجنرال مكررا أمرا سبق اصداره بالتفصيل :

ــ نعم اركب إليهم من فضلك وبلغهم أن على فرسان الهوسار العبور فى النهاية وأن يدمروا الجسر كما ارسلت إليهم من قبل ، ويجب ان يكدسوا مواد الاحتراق على الجسر بعناية .

ــ وهو كذلك !

ونادى نسفتسكى القوزاق سائس جواده ، وامره ان يحمل الجربندية والقارورة ، ووثب بجسمه الثقيل بخفة فوق السرج . وقال باسما للضباط الذين كانوا يرقبونه :

ــ وايم الحق انى ذاهب الآن لزيارة الراهبات .

وانطلق فى الدرب المتعرج نازلا الجبل . والتفت الجنرال إلى ضابط المدفعية :

— والآن ايها النقيب جرب مدى القذائف . لعل هذا يسلينا لتقطع الوقت .

وصاح الضابط ، فأسرع المدفعية يجرون بمرح تاركين نيران المعسكر وحشوا مدافعهم الكبيرة . وسمعوا نداء الأمر : « واحد ! » فانطلق المدفع بصوت معدنى يصم الآذان ومرقت القذيفة وهى تصفر فوق رءوس رجالنا تحت السفح ، ثم سقطت قبل موضع العدو بمسافة كبيرة وانفجرت . وكانت وجوه الجنود والضباط قد اشرقت عند سماع الصوت ، فنهض الكل وراحوا يرقبون باهتمام حركات قواتنا اسفلهم فى وهدة من الأرض ، وحركات العدو الذى يتقدم ، وفى هذه اللحظة بزغت الشمس ساطعة من وراء السحب ، وسرى فى هذا الاشراق المرح والخفة .

— ٧ —

وكانت قذيفتان من قذائف العدو قد طارت من قبل فوق الجسر ، وصار هناك تزاحم عليه . وفى وسط الجسر وقف نسفتسكى بعد أن ترجل عن جواده وظهره إلى السياج ، وراح ينظر باسما إلى قوزاقه الذى كان واقفا وراءه ببضع خطوات ممسكا الجوادين من لجاميهما . وكلما هم نسفتسكى بالتقدم تدفقت عليه الجنود والعربات الزاحفة وردته إلى السياج ، فلم يكن امامه الا الابتسام !

وقال القوزاق لجندى يشق لعربته المحملة طريقا بين جنود المشاة الذين يضغطون على عجلاته وخيوله :

— أنت هناك يا ولدى ! ماذا تصنع ؟ انتظر قليلا فها أنت ترى الجنرال يريد المرور .

ولكن جندى القافلة لم يأبه لاشارته إلى الجنرال وصاح بالجنود الذين يسدون الطريق :

— هيه يا رفاق ! الزموا اليسار ! انتظروا قليلا ...

ولكن الرفاق ظلوا يتقدمون فوق الجسر كتفا إلى كتف ورماحهم مشرعة ببنادقهم ، وكأنهم كتلة متراصة . واطل الأمير نسفتسكى من فوق السياج فرأى امواج نهر «إنس» صاخبة سريعة ولكنها غير عالية ، تدور فى دوامات حول دعائم الجسر ، وتتدافع مع التيار . ونظر فوق الجسر فرأى امواج الجنود الحية متشابهة تماما فى تدفقها ، كلها عبارة عن قلنسوات عليها اغطية ، وجربنديات ورماح وبنادق طويلة . وتحت القلنسوات وجوه عريضة الفك ، ووجنات غائرة ، ونظرات قلق ، وارجل تتحرك فوق الواح الجسر المغطاة بطين لزج . واحيانا يشق ضابط طريقه عنوة ملتفا بعباءة ، وبوجه من نمط مختلف عن وجوه الجنود ، فيلوح كهلال من الزبد فوق أمواج نهر إنس . واحيانا يمر على الجسر بين امواج جنود المشاة فارس هوسار مترجل او مراسلة او احد سكان المدينة واحيانا تمر كالكتلة العائمة على صفحة النهر عربة امتعة مكدسة ومغطاة باغطية من الجلد . وقال القوزاق فى يأس :

— انهم اشبه بنهر فاض على جانبيه . اهناك كثيرون غيرهم هناك ؟

فقال جندى مرح ممزق السترة وهو يغمز بعينيه :

— مليون ، الا واحد !

وتبعه جندى آخر اكبر منه سنا فقال بذعر مخاطبا زميله :

— لو انه (يعنى العدو) بدأ يقصف الجسر الآن فسوف تنسى ان تهرش !

وتلاه جندى آخر راكبا عربة ، وقال احد المراسلات وهو يجرى وراء العربة منقبا فى مؤخرتها :

— اين بحق الشيطان دست اربطة الارجل ؟

ثم مر بعض الجنود وقد بدا عليهم اثر الشراب ، وقال احدهم بمرح وهو يلوح بذراعه :

— ونهض ، وبمؤخرة بندقيته ضربه بعنف على اسنانه !

واجاب آخر وهو يقهقه :

— كم كان فخذ الخنزير لذيذا .

ولم يستطع نسفتسكى ان يعرف من الذى تلقى الضربة على اسنانه ، ولاما هى علاقة لحم الخنزير بهذا كله ! وقال صف ضابط بغضب وتوبيخ :

— هم متعجلون الآن ، فعندما يطلق العدو دفعة من الرصاص البارد ، يخال المرء انهم جميعا قد قتلوا .

وقال جندى شاب ذو فم واسع لا يكاد يمسك نفسه من الضحك وهو كالمتباهى بذعره :

— عندما ازت الرصاصة بجوارى يا عمى ذهلت . الم يكن يحق لى ان افزع ؟

ومن بعد ، مرت عربة لا تشبه كل ما مر من قبل ، فهى عربة المانية ذات حصانين ، محملة فيما يبدو بكل امتعة اعضاء اسرة . وكان المانى يقود الحصانين ، ومن وراء العربة بقرة جميلة رمادية مخططة ذات ضرع ضخم ، وفوق حشايا الفراش المكدسة جلست امراة معها طفل صغير وامراة عجوز وفتاة المانية جميلة وردية الخدين . وواضح انهم من اهل الريف المهجرين ، وقد سمح لهم بالمرور بموجب تصريح خاص . وكانت عيون جميع الجنود على النساء ، وكلما تقدمت العربة خطوة كانت تعليقات الجنود كلها منصبة على المراتين . وقد علت نفس الابتسامة جميع الوجوه تقريبا ، معبرة عن افكارهم السيئة نحو النساء :

— هيه ! السجق يتحرك مبتعدا عنا ...

وقال جندى آخر مخاطبا الالمانى الذى ظل مغضيا بصره فى حنق وارتياع :

— هلا بعت لنا زوجتك ! ؟

وقال آخرون :

— انظروا كيف تبرجت ! ايها الشياطين !

— الا تحب ان تأوى لديهم يا فيدوتوف ؟

— انا اعرف بضعة امور يا دفعة !

وسأل ضابط البيادة الذى كان ياكل تفاحة وهو يبتسم ايضا ويحملق فى الفتاة الحسناء :

— اين انتم ذاهبون ؟

فاغلق الالمانى عينيه علامة على انه لم يفهم .

فقال الضابط وهو يقدم للفتاة تفاحة :

— خذيها إن احببت .

فابتسمت الفتاة واخذتها . وكان نسفتسكى — كغيره ممن على الجسر — لم يحول عينيه قط عن النساء إلى أن ابتعدن . واعقب تلك العربة تيار الجند ، بنفس الاحاديث . ثم حدث توقف . ذلك أن الخيول فى قافلة العربات حرنت عند نهاية الجسر ، فكان على الحشد كله أن ينتظر . وتعالت أصوات الجنود متسائلين « فيم هذا التوقف ؟ لقد اختل النظام . لماذا تدفعنى هكذا ؟ أليس بوسعك الانتظار قليلا ؟ الويل لنا لو اشعل العدو النار فى الجسر الآن ! » .

وقال الجنود فى مواضع كثيرة من الحشد ، وهم يتلفتون حولهم ويواصلون الضغط إلى الامام :

— أنظروا ! ها هو ضابط مزنوق أيضا !

ونظر نسفتسكى إلى مياه نهر « إنس » تحت الجسر ، وسمع فجأة صوتا جديدا عليه . صوت شىء يقترب منه . شىء كبير . ثم صوت ارتطامه بالماء . وقال جندى قريب منه متلفتا إلى الصوت :

— انظروا إلى اين تصل قذيفتهم !

فقال آخر بقلق :

— انهم يشجعوننا على التحرك بسرعة :

وتحرك الحشد ، وادرك نسفتسكى أنها قذيفة مدفع فقال :

— يا قوزاق ! اعطنى جوادى . والآن تنح جانبا ! تنح جانبا ! انفسحوا الطريق !

وبجهد جهيد افلح فى الوصول إلى جواده ، وتقدم على صهوته وهو لا يكف عن الصياح . فتضاغط الجنود ليشقوا له طريقا . ولكنهم تكدسوا عليه ثانية فعصروا ساقه . ولم يكن اقرب الجنود منه هم الملامون ، لأنهم كانوا مدفوعين من الخلف بمزيد من العنف . وسمع صوتا احسن يصيح من خلفه فى تلك اللحظة :

— نسفتسكى ! نسفتسكى ! يا صاحبى العزيز .

والتفت إلى الوراء فرأى على مبعدة خمس عشرة خطوة منكتل جنود البيادة وجه فاسكا دنيزوف الأحمر والأسود المشعث ، وعليه قلنسوة اللباد فى مؤخرة راسه ومعطف طويل ملقى على كتفه . وهدر دنيزوف الذى كان مستثارا جدا ولاريب :

— قل لهؤلاء الشياطين الملاعين أن يفسحوا الطريق ؟

وجعلت عيناه السوداوان كالفحم تلمعان وتدوران ، وتقدحان الشرر ، وهو يطوح سيفا مسلطا بيده العارية التى تضاهى عنقه فى الاحمرار . واجابه نسفتسكى بحبور :

— آه . فاسكا ! ولكن ما هذا الذى تفعل ؟

فهدر فاسكا دنيزوف مكشرا عن اسنانه البيضاء ، وهامزا جواده « البدوى » الأصيل ، الذى جعل يحرك اذنيه ويصهل ويقذف بالزبد من شكيمته ، ولحوافره صلصلة فوق الواح الجسر ، وبدا كما لو كان يهم بالقفز فوق السياج



أما دنيزوف فوقف عند مدخل الجسر مستوقفًا جواده ..

لو سمح له راكبه بهذا . وهدر دنيزوف ملوحا بسيفه المجرد من غمده :

— وماذا بعد ! ؟ كالأغنام تماما .. ! إلى الوراء .. افسحوا الطريق ! قفوا هناك ... اذهبوا بالعربة إلى الشيطان . ساقطعكم اربا بسيفى !

وتضاغط الجنود بوجوه مذعورة ، ولحق دنيزوف بنسفتسكى الذى قال له :

— كيف بالله لا اجدك مخمورا اليوم ؟

— انهم لم يفسحوا لنا وقتا للشراب ! بل ظلوا يجرجرون اللواء جيئة وذهابا طول النهار . والقتال لابأس به على الاطلاق . ولكن اى شىء هذا بحق الشيطان ؟

فنظر نسفتسكى إلى معطفه الجديد وفراء سرجه وقال :

— ما اشد اناقتك اليوم !

فابتسم دنيزوف واستخرج من حمالة سيفه منديلا تفوح منه رائحة العطر ، ووضعه على انف نسفتسكى وقال :

— انا ذاهب إلى العمليات ! ولذا حلقت ذقنى ونظفت اسنانى وتعطرت !

وبفضل قامة نسفتسكى المهيبة ، وبرفقته قوزاقه ، وبفضل تصميم دنيزوف وتلويحه بسيفه وصياحه اليائس ، امكن وقف تدفق البيادة ووصلوا إلى الطرف الآخر للجسر . وعند المدخل قابل نسفتسكى الكولونل الذى عليه أن يسلمه القيادة ، وإذ فرغ من مهمته ركب راجعا . اما دنيزوف فوقف عند مدخل الجسر مستوقفا جواده الذى كان يصهل راغبا فى ان

ينضم إلى رفاقه ، وهو يدق الأرض بحوافره ، وجعل ينظر إلى الكتيبة التى تتقدم نحوه . وكان وقع حوافر الخيل على الواح الجسر اشبه بصوت عدة خيول تركض ، واخذت الكتيبة يتقدمها الضباط تتقدم فى طابور رباعى عبر الجسر وشرعت تبرز على الضفة الاخرى .

وكان جنود البيادة الذين اجبروا على التوقف محتشدين فى الطين فى منتصف الجسر ، وراحوا ينظرون إلى فرسان الهوسار الضعفاء الانيقين وهم يمرون بهم فى نظام حسن ، وعلى وجوههم ذلك التباعد الساخر الذى تكنه فروع الجيش المختلفة لبعضها البعض ، وقال الجند :

ـ ما اشد اناقتهم !

ـ ومنفعتهم كبيرة ! انهم للعرض فقط !

وقال احد الهوسار مازحا ، وقد طفر جواده فالقى رشاشا من الطين على جندى مشاة :

ـ انت يا بيادة ! لاتثر الغبار !

فقال جندى البيادة وهو يمسح الطين عن وجهه بكمه :

ـ احب ان اراك بعد زحفين طويلين ، والجربندية فوق كتفك ، وكيف تنكسر زركشات سترتك . ولكنك جاثم هكذا اقرب إلى الطائر منك إلى الإنسان !

فقال عريف لجندى نحيل انحنى ظهره تحت الجربندية :

ـ الا تحب ان تجثم فوق حصان يا زيكين ؟ ما ابهاك عندئذ من فارس !

وقال الهوسار :

ـ ضع عصا بين رجليك ، يكن لك حصان يناسبك !

- ٨ -

تضاعفت قوات البيادة على شكل قمع عند مدخل الجسر ، وبسرعة زحفت عبره . واخيرا اتمت كل عربات الأمتعة العبور ، وقل الزحام ، وتقدمت الكتيبة الأخيرة إلى الجسر ، وكانت سرية الهوسار التى بها دنيزوف باقية على الجانب الأقصى للنهر فى مواجهة العدو الذى كان يرى عن بعد من الجبل المقابل ولكن لا تمكن رؤيته من الجسر المنخفض ، ولا من الوادى الذى يخترقه النهر ، فالأفق محدود بأرض مرتفعة لا تبعد اكثر من نصف ميل . وفى المقدمة سهل اجرد تناثرت فيه حفنات من دوريات القوزاق . وفجاة ، على الطريق الصاعد إلى الأرض المرتفعة المقابلة برزت للعيان قوات عليها سترات زرقاء وتصحبها المدفعية . انهم الفرنسيون ! واسرع كشافة القوزاق بالركض هابطين التل . ومع ان الضباط ورجال سرية دنيزوف حاولوا الكلام فى امور اخرى والنظر فى اتجاهات مختلفة ، إلا ان تفكيرهم كله كان منصبا طول الوقت إلى ما يجرى فوق التل ، وظلوا ينظرون باستمرار نحو البقع السوداء التى راوها تبرز للعيان على خط الافق ، وعرفوا فيها قوات العدو . وكان الجو قد صفا بعد الظهر وبدات الشمس تسطع وهى جانحة إلى الغروب على الدانوب والجبال المعتمة التى تحدق به . وكان الهواء ساكنا ، ومن جانب التل ترامت فى الحين بعد الحين اصوات البورى وصيحات العدو . لم يكن بين السرية والعدو احد الآن إلا بعض الكشافة . وسهل خال عرضه حوالى ٦٠٠ ياردة

يفصل بينهم وبين قوات العدو الذى كان قد توقف عن اطلاق النار ، مما زاد من وطأة الأحساس بخطورة التهديد القادم من هذه المسافة التى هى الحد الفاصل بين الجيشين المتناجزين .

وشعر كل رجل — ولو بغير تفكير واع مفصل — عند مراى العدو « ان خطوة واحدة عبر هذا الخط هى الفاصل بين الحياة والاهوال المجهولة والموت . وماذا هناك ؟ ومن هناك ؟ هناك وراء ذلك الحقل وتلك الشجرة والسقوف التى تنسكب عليها اشعة الشمس ؟ لا احد يدرى ، والمرء يتوق إلى معرفة ذلك كله ولكنه يخشى اجتياز هذا الخط ، وفى الوقت نفسه يتوق إلى عبوره ويعلم انه لابد له إن عاجلا او آجلا ان يخترقه ويعرف ماذا على الجانب الآخر منه ، كما انه من المحتم على المرء ان يكتشف ما الذى على الجانب الآخر من الموت . ومع هذا يشعر المرء انه قوى معافى مبتهج ومستثار الاعصاب » . ويضفى هذا الشعور حدة من نوع خاص واشراقا على كل الانطباعات التى تتفق له فى هذه اللحظات .

وعلى الأرض المرتفعة التى يحتلها العدو تصاعد دخان طلقة ، ومرقت قذيفة مدفع فوق رءوس السرية من الهوسار . وتفرق الضباط الذين كانوا واقفين معا فى اتجاهات شتى. وبدأ الهوسار يتراجعون بخيولهم ويصطفون بها ، وساد السرية كل الصمت . وكان كل الرجال ينظرون إلى العدو امامهم وإلى قائد السرية متوقعين صدور امر . ومرقت بجوارهم قذيفة مدفع اخرى ، ثم ثالثة . ولم يعد هناك شك فى انهم يصوبون إلى الهوسار ولكن القذائف المنتظمة السريعة طارت فوق رءوس الهوسار وارتطمت بالأرض وراءهم . ولم ينظر

الهوسار وراءهم ، ولكنهم كانوا ينهضون مع كل صوت قذيفة قائمين فى ركابهم كأنما تلقوا الأمر بذلك ، كاتمين انفاسهم اثناء مروق القذائف وازيزها ثم مسترخين ثانية . اجل لم يلتفتوا وراءهم ولكنهم كانوا ينظرون باطراف عيونهم ليرى كل منهم وقع ما يحدث على رفاقه . وكانت تعلو جميع الوجوه — بدءا بدنيزوف ونزولا إلى نافخ البوق — غضون متوترة حول الفم والذقن تدل على الصراع الداخلى . وقطب الرقيب ، وهو يتفحص الجنود علوا وسفلا ، كأنما يتوعدهم بالعقاب . وكان حامل الراية ميرونوف يغوص مع مرور كل قذيفة . وعلى الجناح الأيسر كان روستوف على صهوة الرخ — وهو حيوان بديع رغم اعتلال قوائمه . تبدو عليه سيما التلميذ السعيد الذى استدعى لأداء امتحان أمام جمهور عريض وهو واثق بقدرته على التفوق . لذا كان ينظر بهدوء وتألق إلى كل شخص وكأنه يدعو الجميع للشهادة بمبلغ عدم مبالاته أثناء انطلاق النيران . ومع هذا دبت فى وجهه ايضا رغم إرادته رجفة حول الفم تشى بعنف مشاعره .

وهدر دنيزوف الذى لم يستطع البقاء فى مكان واحد ، بل راح يركض بجواده جيئة وذهابا امام السرية :

— من الذى يغطس ويقب هناك ؟ حامل الراية ميرونوف ؟ هذا لا ينبغى ! انظر إلى ! والحق أن وجه واسكا دنيزوف الافطس الأنف الاسود الشعر ، وقامته القصيرة ويده المعروفة القوية، القصيرة الاصابع، القابضة سيفه المسلول، كانت كلها كالعهد بها ولا سيما فى المساء بعد أن يكون قد عب زجاجتين. وكل ما هناك أن وجهه الآن اشد حمرة من المعتاد ، وهو يطوح

إلى الوراء راسه الاشعث الشديد السواد ، على نحو ما تصنع الطيور عندما تشرب ، وساقاه تهزان باستمرار بطن جواده الكريم «البدوى» ، وهو يركض به إلى الجناح الآخر للسرية ، ويخيل للرائى انه سيسقط إلى الخلف فى السرج ، ويصيح بصوته الأجش برجاله كى ينظروا إلى طبنجاتهم . وركب إلى كيرستن . وكان نقيب اركان الحرب راكبا حصانه الثابت البدين ويتجه بخطوة السير العادى لملاقاته . ووجه هذا النقيب بسوالفه الطويلة جاد كالعادة ، إلا ان عينيه كانتا اشد لمعانا من المعتاد . وقال لدنيزوف :

— لن يتمخض الموقف عن اشتباك ، وسترى اننا سنتراجع مرة اخرى !

فزمجر دنيزوف :

— الشيطان اعلم ماذا سيحدث !

ثم صاح بحامل الراية وقد لاحظ اشراق وجهه :

— آه ! ياروستوف ! لن يطول انتظارك !

وابتسم له اعرابا عن سروره لمنظر حامل الراية . وشعر روستوف بسعادة غامرة ، وفى هذه اللحظة ظهر الكولونيل عند الجسر ، فركض إليه دنيزوف وقال :

— مرنا بالهجوم يا صاحب السعادة ! سوف (نسويهم) هذه المرة !

فقال الكولونيل فى سأم ، مغضنا وجهه كانما ضايقته ذبابة :

— نهاجم حقا ! وماذا تصنع انت بوقوفك هنا ؟ الجناحان يتراجعان . ارتد بالسرية !

وعبرت السرية الجسر وابتعدت عن مرمى مدافع العدو من غير ان تخسر رجلا واحدا .وتبعتها السرية الثانية ، وعبر القوزاق آخر الجميع واخلوا ضفة النهر البعيدة .

وبعد ان اتمت سريتا لواء بفلوجراد عبور الجسر ، ركبتا صاعدين التل تباعا . وكان الكولونيل كارل بوجدانتش شوبيرت قد لحق بسرية دنيزوف راكبا بالسير البطىء غير بعيد من روستوف ، غير ملق باله إليه ، مع ان هذه كانت أول مرة يلتقيان فيها منذ حادثة تليانين . ولما شعر روستوف انه فى الجبهة وتحت سلطان الرجل الذى اقر بخطئه نحوه ، لم يرفع عينيه قط عن ظهر الكولونيل القوى وراسه الكتانى ، وعنقه الاحمر . وفى البداية خيل إلى روستوف ان الكولونيل يتظاهر بعدم التنبه إليه ، وان كل مراده الآن ان يمتحن تماسك حامل الراية ، فشد قامته ، وتلفت حوله بمرح . ثم خيل إليه ان بوجدانتش يلازمه عمدا ليدلل له على بسالته ثم خطر له فجاة ان عدوه يكلف الآن السرية بهجوم يائس عمدا لكى يعاقبه . وراح يحلم بأنه بعد الهجوم سيذهب إليه وهو جريح ويمد إليه يده بسماحة للمصالحة . وركب إلى الكولونيل الضابط زركوف العالى الكتفين المعروف لكل هوسار لواء بفلوجراد لأنه لم يترك لواءهم الا منذ امد قصير . وكان زركوف بعد فصله من هيئة اركان حرب القائد العام لم يستمر فى اللواء قائلا انه ليس من الحماقة بحيث يمضى إلى العمل الشاق فى الجبهة مع

انه يمكن ان يحصل على راتب اكبر لكى لا يعمل شيئا فى هيئة الاركان ، ونجح فى تعيينه مراسلة فى هيئة اركان حرب الأمير «باجراتيون» . وهكذا ركب إلى كولونيله القديم بأمر من قائد حرس المؤخرة . وقال بجديته المتجهمة مخاطبا عدو روستوف، وملتفتا إلى رفاقه :

— يا كولونيل ! هناك امر بالرجوع إلى الجسر واحراقه .

فسأله الكولونيل بوجوم :

— امر ؟ لمن ؟

فأجابه نافخ البوق بجد :

— لا ادرى لمن يا كولونيل . كل ما هناك ان الأمير امرنى قائلا : « اركب وقل للكولونيل انه يجب على الهوسار الاسراع بالعودة وإحراق الجسر » .

وجاء فى اعقاب زركوف ضابط من الحاشية ، ركب إلى الكولونيل بنفس الأمر . وبعد هذا الضابط شوهد نسفتسكى البدين راكبا حصانا قوقازيا يجد صعوبة فى الركض به ، وصاح وهو لم يزل يركض متجها إليه :

— يا كولونيل ! قلت لك أن تحرق الجسر ، وها هو قد حدث خطأ فى الفهم . والكل هناك فى اهتياج شديد !

واستوقف الكولونيل اللواء باستعلاء ثم استدار إلى نسفتسكى وقال :

— لقد كلمتنى عن مواد اشتعال ، ولكنك لم تقل كلمة واحدة عن الاحراق !

وقال نسفتسكى وهو يتوقف خالعا قلنسوته اللباد ، ومارا بيده السمينة على شعره المبلل بالعرق :

— لماذا يا رجلى الطيب ؟ ما الداعى إلى ان اقول لك احرق الجسر وقد بلغتك ان تكدس عليه مواد الاشتعال .

— أنا لست « رجلك الطيب » ياحضرة ضابط الاركان . وانت لم تطلب منى قط أن أحرق الجسر ! انا اعرف واجبى ومن عادتى أن أنفذ الأوامر بكل دقة ! انت قلت إنه سيجرى إحراق الجسر ، ولكنى لم أعرف من الذى سوف يحرقه !

فقال نسفتسكى مطوحا ذراعه :

— هذا ما يحدث دائما !

والتفت إلى زركوف وقال :

— كيف اتيت إلى هنا ؟

— لنفس هذه الاوامر . لماذا تنتصب هكذا كأنك تريد ان تسحق ؟

وقال الكولونيل بلهجة استياء :

— انت قلت يا سيادة ضابط الاركان إن ....

فقاطعه ضابط الحاشية قائلا بحزم :

— الأمر يقتضى السرعة يا كولونيل ! وإلا حرك العدو مدافعه العنقودية .

ونظر الكولونيل بذهول إلى ضابط الحاشية ، وضابط الاركان البدين وزركوف وقطب حاجبيه وقال بلهجة المتذمر المستعد رغم مضايقتهم له ان يؤدى واجبه :

— سأحرق الجسر !

وضرب بساقيه القويتين بطن حصانه كأنه الملوم على كل شىء ، وتقدم فاصدر الأمر إلى السرية الثانية التى يقودها دنيزوف ويخدم فيها روستوف أن ترتد عائدة إلى الجسر ، وقال روستوف فى نفسه وقلبه يدق ودمه يندفع إلى وجهه :

— الأمر هكذا فعلا ! انه يريد أن يختبرنى . وسيرى هل انا جبان !

ومرة اخرى اكتست وجوه جميع الرجال المشرقة فى تلك السرية بتلك الجهامة عندما كانوا تحت النيران . ونظر روستوف بثبات إلى عدوه الكولونيل محاولا ان يتسقط تأكيدا لما خطر بباله ، ولكن الكولونيل لم ينظر قط إليه ، بل كان ينظر كعادته دائما إلى المقدمة وقد علته الجهامة والصرامة .. وأصدر امره . وترجل الهوسار بسرعة ، وقد تشابكت اسيافهم فى الاعنة وصلصلت مهمازاتهم ، ولا يدرون شخصيا ما يصنعون . ورسم الجنود الصليب . اما روستوف فلم يعد ينظر الآن إلى الكولونيل ، فلم يعد هناك وقت لذلك . وخشى أن يتركه الهوسار وراءهم . وارتجفت يده وهو يعطى جواده لمراسلة ، واحس بدمه يندفع إلى قلبه بعنف . وركب دنيزوف مارا به وهو يهتز فى سرجه صائحا ببعض الأوامر . ولم ير روستوف شيئا سوى الهوسار الذين يجرون حوله مصلصلين بمهاميزهم وسيوفهم . وصاح خلفه :

— النقالات !

ولم يفقه روستوف معنى الحاجة إلى نقالات ، بل جرى

محاولا ان يسبق الجميع . ولكنه عند الجسر ، ومن غير ان ينظر إلى مواطىء قدميه دخل فى الطين اللزج فتعثر وسقط على يديه . واقامه الآخرون . وسمع صياح الكولونيل الذى تقدم الجميع واوقف جواده عند الجسر بوجه مبتهج ظافر :

— من الجانبين يا نقيب !

ومسح روستوف يديه الملوثتين بالطين فى سروال ركوبه، والتفت إلى عدوه ، واوشك ان يجرى إلى الامام ، ظنا منه أنه كلما تقدم كان ذلك أجدر به . ولكن مع ان بوجدانتش لم يكن ناظرا إلى روستوف ولم يعرفه الا انه صاح به فى غضب :

— من منكم الذى اراه يتقدم فى منتصف الجسر ؟ على الجانب الأيمن ؟ ارجع يا حامل الراية !

والتفت إلى دنيزوف الذى ركب ببسالة فوق الواح الجسر وصاح به :

— لماذا المجازفة يا نقيب ؟ يجب أن تترجل !

فاستدار فاسكا دنيزوف فى سرجه وقال :

— لن يصاب الا المذنب !

وفى هذه اثناء كان نسفتسكى وزركوف وضابط الحاشية واقفين معا خارج مدى العدو ، يرقبون مجموعة الرجال الصغيرة ذات القلانس الصفراء والسترات الخضراء الداكنة المزركشة ، وسراويل الركوب الزرقاء وهى تحتشد فوق الجسر ، وعلى الضفة الأخرى للنهر شوهدت السترات الزرقاء والمجموعات ذات الخيول ، التى من السهل إدراك انها مدافع ، وهم يقتربون من بعيد .

وكانت الأسئلة التى تعتلج فى القلوب الواجفة لأولئك الرجال المحدقين بالجسر :

ــ هل سيحرقون الجسر ام لا ؟ من الذى سيصل إليه اولا ؟ هل يجرون إليه ويحرقونه ام سيسيطرهم الفرنسيون بقنابلهم العنقودية ويقتلونهم .

وفى شمس الغروب الساطعة راحوا يحدقون فى الجسر والهوسار ، والسترات الزرقاء ذات الرماح والبنادق تتحرك مقتربة ، على الضفة الأخرى . وقال نسفتسكى :

ــ أخ ! سيقع الهوسار فى الفخ . فهم الآن ليسوا خارج مدى الطلقات العنقودية .

وقال ضابط الحاشية :

ــ لقد اخطأ بتكليف كل هؤلاء الرجال بالعملية .

فقال نسفتسكى :

ــ فعلا . فلو كلف بها شخصين جسورين لكان ذلك كافيا .

وقال زركوف وعيناه على الهوسار ، وان ظل يتكلم بلهجته الساذجة التى لا يدرك السامع منها اجاد هو ام هازل :

ــ آه يا صاحب السعادة ! ما ابعد نظرك إلى الامور ! ايرسل رجلا ، ثم من ذا الذى سيمنحنا وسام فلاديمير والأنواط فى هذه الحالة ؟ أما الآن فحتى لو حصدوهم فسوف يبقى من السرية واحد يتلقى النوط ! ان صاحبنا بجدانتش يعرف من اين تؤكل الكتف !

وقال ضابط الحاشية :

ــ ها هى قذيفة عنقودية !

واشار إلى المدافع الفرنسية التى اخرجت من عرباتها واخذت تتحرك بسرعة .

ومن الجانب الفرنسى تصاعد الدخان من بين المجموعات التى تستخدم المدافع . نفثة ثم اخرى ثم ثالثة فى نفس اللحظة تقريبا ، وفى نفس الآن الذى سمعوا فيه صوت الطلقة الاولى . ارتفعت النفثة الرابعة من الدخان ، ودوت فرقعتان متتاليتان ثم فرقعة ثالثة . وتأوه نسفتسكى متشبثا بيد ضابط الحاشية ، وكأنه يعانى الما شديدا .

ــ اوه ! ها قد سقط رجل ! سقط ! سقط !

ــ بل اثنان فيما أظن .

وقال نسفتسكى مشيحا بوجهه :

ــ لو كنت القيصر لما شننت الحرب !

وبسرعة تم حشو المدافع الفرنسية من جديد ، وكان المشاة بستراتهم الزرقاء يجرون صوب الجسر . ومرة اخرى تصاعدت نفثات الدخان فى فترات مختلفة ، وتعقعقت القذائف العنقودية على الجسر ، ولكن نسفتسكى لم يستطع فى هذه المرة ان يعرف ماذا يحدث على الجسر ، وكانت سحابة غليظة من الدخان قد تصاعدت منه ، فالهوسار كانوا قد اشعلوا النار فعلا فى الجسر ، والبطاريات الفرنسية تطلق النار عليهم الآن لا ليعطلوهم بل لأنهم قربوا مدافعهم وصار أمامهم من يصوبونها إليهم .

واتسع الوقت امام الفرنسيين لاطلاق ثلاث دفعات من القذائف العنقودية قبل ان يعود الهوسار إلى خيولهم . وكانت دفعتان منها خائبتان فمرقت القذائف فوق الهوسار ، اما الثالثة فسقطت وسط المجموعة وصرعت ثلاثة من الهوسار .

وكان روستوف لم يزل تستغرقه علاقاته بجدانتش ، فخطا فوق الجسر لا يدرى ماذا عليه ان يصنع فليس هناك من يهجم عليه بسيفه (فهكذا كان يتصور المعركة) ولم تكن منه فائدة فى إحراق الجسر لانه لم يكن احضر معه حزمة قش مثل سائر الجند فوقف ينظر حواليه ، عندما علت قعقعة على الجسر فجاة كانما نثرت فوقه حبات من البندق ، ثم سقط اقرب هوسار إليه على السياج وهو يئن . وجرى إليه روستوف مع الآخرين ، ومرة اخرى صاح بعضهم :

ــ نقالات !

وتكاثر اربعة على الهوسار وشرعوا يرفعونه . وصاح الجريح :

ــ أوووه ! دعونى بحق المسيح !

ولكنهم رفعوه ووضعوه على نقالة . واشاح روستوف وبدا يحملق بعيدا فى مياه الدانوب وإلى السماء والشمس ، وكأنه يفتش عن شىء . وكم بدت هذه السماء رائقة زرقاء عميقة . وكم تبدو الشمس الغاربة منتصرة ومشرقة ، وتبدو مياه الدانوب متالقة ، ويبدو دير الراهبات ، والأخاديد الغامضة ، وغابات الصنوبر التى يطفو الضباب إلى اعالى

اشجارها . . . انها كلها تمثل السلام والسعادة . وقال روستوف لنفسه .

ــ ما من شىء اطلاقا كنت اتمناه لو اننى كنت هناك ، منفردا بنفسى . ففى ضياء هذه الشمس الكثير من السعادة . . اما هنا فانين وعذاب ، وقلق ، وعجلة . . . ها هم يصيحون بأمور اخرى ، والجميع يرتدون إلى الخلف وانا معهم . وها هو الموت يحدق بى من كل صوب . . . ما هى الا لحظة ولن ارى بعدها ضوء الشمس ولا هذا الماء ولا هذا الاخدود بعد ذلك ابدا . . .

وفى هذه اللحظة غابت الشمس وراء السحب ، واقبلت نقالات اخرى متجاوزة روستوف ، واندمج الفزع من الموت ومن النقالات ، وغياب الشمس وفقدان الحياة فى احساس واحد من الخوف المغثى . وهمس روستوف لنفسه :

ــ يا الهى الذى فى السماء ! انقذنى واغفرلى واحمنى !

وجرى الهوسار عائدين إلى خيولهم ، وتعالت اصواتهم وقد زادت ثقة ، واختفت النقالات عن الانظار . وصاح فاسكا دنيزوف فى اذنه :

ــ ها انت يا فتاى شممت رائحة البارود !

وقال روستوف لنفسه :

ــ ها قد انتهى كل شىء . ولكنى جبان . نعم انا جبان ! لقد استخدموا مدافعهم بنظام بديع . ولكنها عملية قذرة . هجوم الخيالة شىء لطيف ممتع . هجوم على الكلام ! ولكن هذه العملية كانت مجرد تصويب على الهدف .

وركب دنيزوف إلى جماعة واقفة غير بعيد من روستوف . مكونة من الكولونيل ونسفتسكى وزركوف وضابط الحاشية . وقال روستوف فى نفسه :

— ولكن يبدو ان احدا لم يلاحظ شيئا .

والواقع انه لا احد لاحظ شيئا على الاطلاق لان كل واحد منهم كان قد الف ذلك الشعور الذى انتاب حامل الراية لاول مرة ، لانه لم يسبق له الوجود تحت النيران .

وقال زركوف :

— الآن ستجد ما تتكلم عنه . وسيرقوننى إلى ملازم ثان قبل أن ادرى اين انا . . .

وقال الكولونيل بنبرة انتصار مرحة :

— ابلغ الأمير اننى احرقت الجسر .

— وإذا سأل عن الخسائر ؟

فأجابه الكولونيل بصوت مدو وبابتهاج سافر :

— انها لا تستحق الذكر : جريحان من الهوسار ، وقتيل صرع فى مكانه .

ولم يستطع الالمانى أن يكتم ابتسامة رضا وهو ينطق بالعبارة الأخيرة بالروسية الدارجة .

— ٩ —

ذلك الجيش الروسى المؤلف من خمس وثلاثين الف مقاتل ، تحت قيادة كوتوزوف ، كان يلاحقه الجيش الفرنسى المؤلف من مائة الف مقاتل تحت قيادة بونابرت، وتلقاه السكان بالعداوة ، ففقد هذا الجيش الروسى الثقة بحلفائه ، وعانى من نقص المؤن والإمدادات ، واضطر للعمل فى ظروف غير متوقعة اطلاقا ، فتراجع تراجعا سريعا إلى الاراضى السفلى المحيطة بالدانوب . وهناك توقف الروس ، ولحق بهم العدو ، وجرت مناوشات قليلة فى المؤخرة ، مع تحاشى الاشتباك إلا فى الحدود التى يحتمها ضمان التراجع والانسحاب من غير أن يخسروا امتعتهم وعتادهم ومدافعهم . وجرت عمليات فى لمباخ وامستتن وميلك . ولكن برغم شجاعة وعناد الروس فى القتال — وهو ما شهد به العدو نفسه — إلا أن النتيجة كانت مزيدا من التراجع والانسحاب . وكانت القوات النمساوية التى أفلتت من الاسر فى (أولم) قد انضمت لقوات كوتوزوف عند براوناو ، وها هى قد انفصلت عن الجيش الروسى ؛ وظل كوتوزوف بلا دعم ومعه قواته الضعيفة المنهكة . ولم يبق هناك أمل فى الدفاع عن فيينا . وبدلا من خطة الهجوم المفصلة — طبقا لمبادىء العلم الاستراتيجى الحديث — كانت الخطة المبلغة إلى كوتوزوف اثناء اقامته فى فينا من جانب القيادة العليا النمساوية كل هدفها — وهو هدف ميئوس منه تقريبا — أن يحاول كوتوزوف تجنب فقدان جيشه ، على نحو ما حدث لماك فى (أولم) ، وان يتم الاتصال والانضمام إلى القوات الجديدة الزاحفة من روسيا .

وفى ٢٨ من اكتوبر ، أخذ كوتوزوف جيشه وعبر به إلى الضفة اليسرى للدانوب ، وهناك توقف للمرة الأولى جاعلا الدانوب فاصلا بينه وبين الجانب الأكبر من قوات العدو . وفى ٣٠ من اكتوبر هاجم فيلق مورتييه الذى كان على الجانب الأيسر للدانوب وهزمه . وفى هذه العملية استولى لأول مرة على غنائم عبارة عن راية ومدافع وجنرالين فرنسيين . ولأول مرة بعد انسحاب استمر اسبوعين توقفت القوات الروسية ، وبعد القتال لم يحتفظوا بميدان المعركة فحسب ، بل وطردوا منها الفرنسيين . ومع ان القوات كانت مفتقرة إلى الملابس ، ومنهكة القوى ، وفقدت ثلث قوتها بين جرحى وقتلى ومفقودين . ومع انهم تركوا مرضاهم وجرحاهم على الضفة الأخرى للدانوب ومعهم خطاب من كوتوزوف يعهد بهم إلى رحمة الأعداء وانسانيتهم ، ومع ان المستشفيات الكبيرة والبيوت فى كرمس لم تتسع لكل المرضى والجرحى — برغم هذا كله إلا ان التوقف قبل كرمس والانتصار على مورتييه رفع كثيرا من روح القوات المعنوية . فسرت فى الجيش كله ، بل وفى القيادة العليا شائعات مبهجة جدا ، ولكن لا اساس لها ، عن وشك قدوم طوابير القوات من روسيا ، وعن انتصار ما حققه النمساويون ، وعن تراجع بونابرت وقد انتابه الذعر !

وكان الأمير اندريه اثناء الاشتباك مرافقا للجنرال النمساوى شميدت الذى قتل فى المعركة ، وكان جواده قد جرح تحته ، واصيب هو شخصيا بجرح يسير فى ذراعه من رصاصة . وبلفتة خاصة من القائد العام بعث الأمير اندريه ليحمل نبأ هذا النصر إلى البلاط النمساوى الموجود الآن فى

برين ، لأن فينا مهددة من جانب الفرنسيين . وفى ليلة المعركة كان الأمير اندريه مستثار الاعصاب ولكنه غير منهك القوى (فمع أنه لا يبدو متين البنية إلا انه بمستطاعه ان يتحمل التعب اكثر من رجال شديدى القوة) فركب مع فصيلة من دوتوروف إلى كرمس إلى كوتوزوف . وفى نفس تلك الليلة كلف بحمل رسالة خاصة إلى برين . وهى مهمة تعنى خطوة هامة فى الترقى ، بصرف النظر عن المكافأة .

كان الليل حالكا ، وبدا الطريق أسود وسط الثلج الأبيض الذى سقط يوم المعركة . وبذهن حافل بانطباعات المعركة والتوقعات المبهجة لتأثير انباء النصر ، وذكريات وداع القائد العام ورفاقه ، انطلقت العربة الخفيفة بالأمير اندريه ، وهو يشعر بأنه بعد انتظار طويل خطى بالجرعة الاولى لسعادة مشتهاة . وما ان اغمض عينيه حتى راحت اصداء طلقات البنادق والمدافع ترن فى اذنيه ، واندمجت هذه الاصوات مع قعقعة العربة والاحساس بالنصر . وفى إحدى اللحظات حلم ان القوات الروسية تلوذ بالفرار ، وانه جرح ، ولكنه سرعان ما استيقظ واسعده أن يدرك ان ذلك كله وهم ، وان الفرنسيين هم الذين لاذوا بالفرار . وتذكر مرة اخرى كل تفصيلات النصر ، ورجولته الهادئة اثناء المعركة . وما ان اطمأن حتى بدا يغفو .. واعقبت الليل الحالك طلعة مشرقة للشمس وبدا الثلج يذوب فى الشمس ، وركضت الجياد بسرعة ومرقت على جانبى الطريق غابات جديدة وحقول واشجار مختلفة المنظر .

وعند إحدى المحطات ادرك قافلة من الجرحى الروس. والضابط الروسى المكلف بالنقل يرقد متراخيا فى العربة الأولى. وهو يكيل السباب الفج لأحد الجنود . وفى كل من العربتين الألمانيتين الطويلتين ستة من الجرحى الشاحبين المضمدين القذرين يرتجون فوق الطرق الصخرية . وكان البعض منهم يتكلمون (فقد سمع الفاظا روسية) وبعضهم الآخر يأكلون خبزا . وابلغهم اصابة يحدقون بذهول إلى عربة الأمير التى تمرق بجوارهم، فى وهن الأطفال المرضى . فأمر الأمير الحوذى بالوقوف ، وسأل جنديا فى أى معركة جرحوا ، فأجابه :

ــ امس الأول ، على ضفة الدانوب .

فاخرج الأمير كيس نقوده واعطى الجندى ثلاث قطع ذهبية وقال للضابط الذى اقترب :

ــ هذه للجميع !

وقال للجنود :

ــ اسرعوا بالشفاء ، فلم يزل امامنا الكثير . . .

وصاح بالحوذى :

ــ اخبار طيبة ! انطلق قدما !

وكان الظلام قد خيم عندما دخل الأمير برين والفى نفسه محاطا ببيوت عالية ، ومتاجر مضاءة ، ونوافذ البيوت يشع منها الضوء ، ومصابيح الشوارع موقدة ، والعربات الجميلة تدرج بضوضائها على الطرق الممهدة . وهى كل مظاهر الحياة فى مدينة عظيمة تموج بالحياة وتخلب لب الجندى بعد حياة المعسكر . وبالرغم من سرعة العربة والأرق شعر



وعند إحدى المحطات أدرك قافلة من الجرحى الروس ..

الأمير أندريه بأنه أكثر يقظة وهو يستقل العربة إلى القصر مما كان فى الأمسية السابقة . وتألقت عيناه ببريق كبريق الحمى ، وتعاقبت أفكاره بكل سرعة ووضوح . وتصور مرة أخرى كل تفصيلات المعركة بكل وضوح وتميز على النحو الذى أراد أن يعرضه على الإمبراطور فرنسيس وتخيل الأسئلة العرضية التى قد توجه إليه والإجابات التى ينبغى أن يرد بها عليها . وخُيل إليه أنه سيمثل أمام الإمبراطور على الفور ؛ ولكن عند مدخل القصر أسرع موظف للقائه ، ولما علم أنه مبعوث خاص قاده إلى مدخل آخر . وقال له :

— انعطف إلى اليمين فى هذا الدهليز يا صاحب السعادة تجد المعاون المنوب الذى سوف يقودك إلى وزير الحرب .

ولما قابله المعاون المنوب طلب منه الانتظار ودخل إلى وزير الحرب . وبعد خمس دقائق عاد هذا المعاون وبتهذيب ملحوظ انحنى وادخل الأمير أندريه أمامه وقاده فى الدهليز إلى الحجرة الخاصة بوزير الحرب . وكان هذا المعاون بهذه الشكليات المهذبة المبالغ فيها يريد — فيما يلوح — أن يحمى نفسه من أى محاولة لرفع الكلفة من جانب المعاون الروسى . وهبطت مشاعر الأمير أندريه المبتهجة وهو يقترب من باب وزير الحرب . لأنه شعر بأنه قد استخف به ، وسرعان ما تحول هذا الشعور إلى شعور بالإزدراء لم يكن مطلوبا . وأمده ذهنه البارع بمبرر لشعوره بالإزدراء نحو المعاون ووزير الحرب كليهما . وقال فى نفسه : « لاشك أن كسب الانتصارات يبدو لهما أمرا غاية فى البساطة ، لأنهم لم يشموا قط رائحة

البارود ! » وأرخى جفنيه ازدراء وسار بتمهل شديد داخلا حجرة وزير الحرب . واشتد احساسه بالزراية له عندما رآه جالسا إلى منضدة كبيرة ، وظل دقيقتين لايعير دخوله التفاتا . وكان هذا الوزير أصلع وعلى عارضيه خصلات شعر أشيب متموج ، وقد جلس بين شمعتين يطالع أوراقا ويسجل عليها ملاحظات بقلم الرصاص . وظل يقرأ إلى النهاية من غير أن يرفع عينيه عند انفتاح الباب وصوت وقع الأقدام . ثم قال لمعاونه وهو يقدم له الأوراق غير ملتفت إلى الملحق الروسى :

— خذ هذه وأعطه اياها .

وأحس الأمير أندريه أن الوزير اما أن يكون أقل اهتماما بأعمال جيش كوتوزوف منه بالموضوع الآخر الذى استحوذ على اهتمامه . واما أنه يريد أن يشعر الملحق الروسى بذلك . وقال لنفسه :

— ولكن هذا الأمر لا يعنينى اطلاقا .

ووضع وزير الحرب الأوراق الباقية معا ، وسوى أطرافها ثم رفع رأسه ، وهو رأس يدل على ثقافة وشخصية ، ولكنه فى اللحظة التى استدار فيها إلى الأمير أندريه تغير وجه الوزير فاختفى منه التصميم والحصافة وغدا واعيا وعاديا ، وارتسمت عليه الابتسامة البلهاء المنافقة التى لا تدارى نفاقها: ابتسامة رجل يستقبل الكثيرين من أصحاب الالتماسات ، الواحد منهم بعد الآخر . وتساءل :

— من الجنرال .. المارشال كوتوزوف ؟ أنباء حسنة فيما أرجو ؟ هل حدث اشتباك مع مورتييه ؟ حقا لقد آن الأوان !

وتناول الرسالة الموجهة إليه وبدأ يقراها بسيماء حزينة ، وقال بالألمانية :

ـ آه ! يا إلهى ! يا إلهى ! شميدت ! يالها من كارثة ! يالها من كارثة !

وجرى بعينيه على سطور الرسالة ثم وضعها على المنضدة ونظر إلى الأمير اندريه متفكرا .

ـ آه ! انها لكارثة ! الاشتباك كما تقول كان حاسما ؟ ولكن مورتييه لم يؤسر . كم يسرنى انك جئت بأخبار طيبة ، وان كان موت شميدت ثمنا فادحا للنصر ، وصاحب الجلالة سيحب طبعا ان يراك . ولكن ليس اليوم . وانا اشكرك . ولابد انك بحاجة للراحة . كن فى قاعة الاستقبال بعد العرض . وسوف ابلغك فى الوقت المناسب .

وعادت إلى وجه وزير الحرب الابتسامة الغبية التى كانت قد فارقته وهو يتكلم ، وقال :

ـ إلى اللقاء ، اشكرك بحق . جلالة الإمبراطور من المرجح جدا ان يرغب فى استقبالك .

واحنى راسه . وغادر الأمير اندريه القصر ، وقد احس ان كل الاهتمام والسعادة اللذين منحه اياهما النصر قد تبخرا الآن بين يدى الوزير غير المكترث ومعاونه الرسمى المتمسك بالشكليات . وتغير كل مغزى افكاره فى الحال ، وبدت له المعركة ذكرى ممعنة فى البعد .

- ١٠ -

اقام الأمير اندريه فى برين مع روسى من معارفه فى السلك السياسى ، وهو بيليبين ، الذى قال وهو مقبل للقاء الأمير اندريه:

ـ يا عزيزى الأمير ، ليس احب إلى نفسى ان اراه منك .

والتفت إلى خادم كان قد ادخل بولكونسكى :

ـ فرانز . خذ امتعة الأمير إلى حجرة نومى .

ثم اردف للأمير قائلا :

ـ انت رسول النصر ؟ هذا رائع ! انا حبيس الدار لمرضى كما ترى .

وبعد الاغتسال وتبديل الثياب توجه الأمير اندريه إلى مكتب الدبلوماسى الفخم وجلس إلى الطعام الذى اعد له ، وجلس بيليبين مخلدا للهدوء امام المدفأة .

وليست الرحلة فقط ، بل كل الوقت الذى قضاه الأمير اندريه مع الجيش اثناء الزحف ، حرمه من كل مناعم النظافة واناقة الحياة ، مما جعله الآن يحس احساسا لطيفا بالراحة فى هذا الترف الذى تعوده منذ الطفولة . ثم انه بعد هذا الاستقبال النمسوى كان يسره ان يتكلم ـ ان لم يكن بالروسية لانهما يتحدثان بالفرنسية ـ فعلى الاقل إلى شخص روسى يمكن ـ فيما يخيل إليه ـ ان يشارك فى الكراهية الروسية العامة للنمساويين (وهى كراهة يحسها الآن بصفة خاصة) . وكان بيليبين رجلا فى الخامسة والثلاثين ، اعزب ، من نفس وسط الأمير اندريه . وقد تم تعارفهما فى بطرسبرج ، ولكن

صلتهما ازدادت توثقا أثناء اقامة الأمير اندريه فى فيينا مع كوتوزوف . ومثلما كان الأمير اندريه شابا يبشر بالترقى السريع فى الجيش ، كذلك كان بيليبين يبشر بمستقبل افضل ايضا فى السلك الدبلوماسى . فهو صغير السن، ولكنه ليس دبلوماسيا صغيرا ، لأنه دخل هذا السلك وهو فى السادسة عشرة . وخدم فى باريس وكوبنهاجن وها هو الآن فى فيينا يشغل منصبا هاما . وكل من وزير الخارجية وسفيرنا فى فيينا يعرفانه ويقدرانه . فهو ليس من ذلك الحشد الكبير من الدبلوماسيين الذين تقتصر مؤهلاتهم على صفات سلبية ، ويريدون تحاشى عمل أمور معينة ، ويتحدثون الفرنسية لكى يوصفوا بأنهم دبلوماسيون بارعون ! بل هو من الدبلوماسيين الذين يحبون العمل ويفهمونه ، وبرغم تراخيه الطبيعى كثيرا ما كان يقضى لياليه أمام مكتبه وهو يكتب . ولم يكن اهتمامه بالسؤال « لماذا ؟ » بل بالسؤال « كيف ؟ » ولم يكن يبالى بمكونات عمله الدبلوماسى ، بل كانت كتابة منشور دورى ، او مذكرة ، او تقرير بدقة وحساسية واناقة مهمة تمنحه متعة كبيرة . وفيما عدا مثل هذه الاعمال كانت مزايا بيليبين موضع تقدير بسبب يسر تحركاته واحاديثه فى الاوساط العليا .

فبيليبين كان يستمتع بالأحاديث مثلما يستمتع بالعمل . عندما يكون الحديث فكها فى أناقة . وفى المجتمع كان دائم الترقب لفرصة يقول فيها شيئا لافتا ، ولم يكن يدخل فى الحديث إلا فى هذه الظروف . فقد كانت احاديثه دائما موشاة بعبارات مصقولة طريفة حكيمة وذات اهتمام عام . وكانت هذه العبارات تتم صياغتها فى معمله الذهنى الداخلى ، كانما

يتعمد أن يتاح للتافهين من الناس تذكرها بسهولة ونقلها من قاعة استقبال إلى اخرى . ولذا كانوا يتناقلونها فى قاعات استقبال فيينا ، وصار لها فيما بعد تأثير كبير على ما يسمونه بالاحداث الكبرى .

وكان وجهه النحيف تغطيه الغضون العميقة التى تبدو دائما نظيفة معتنى بغسلها مثل اطراف الانامل بعد الحمام . وحركات هذه الغضون تقوم بالدور الأساسى فى تعبيرات سحنته . ففى لحظة ما تتغضن جبهته فى اخاديد عريضة ، ويرتفع حاجباه ، وفى لحظة اخرى يسقط حاجباه وتغطى الغضون العميقة وجنتيه ، وعيناه الغائرتان تطل منهما نظرة صريحة مرحة . وقال للأمير :

ــ هيا الآن وخبرنا عن انتصاراتك .

وبكل تواضع ومن غير ان يشير مرة واحدة إلى علاقته بالموضوع ، راح يقص عليه وصف الاشتباك ، ثم استقباله لدى الوزير بعد ذلك ، وختم ذلك بقوله :

ــ لقد استقبلونى انا وابنائى وكانى كلب بعد شوط من لعبة القنانى الخشبية .

فابتسم بيليبين ، واختفت الغضون من وجهه . وقال وهو ينظر عن بعد إلى أطراف اصابعه ويغضن الجلد الذى فوق عينه اليسرى وقال :

ــ على كل حال يا صاحبى العزيز ، ومع تقديرى العالى للقوات المسلحة الروسية إلا انى اعترف ان نصركم ليس نصرا مؤزرا مرموقا !

ومضى يتكلم بالفرنسية ولا ينطق بالروسية إلا تلك الالفاظ التى يريد ان يضفى عليها نبرة ازدراء واردف :

ــ انكم بكل كتلة جيشكم انقضضتم على مورتييه العاثر الحظ ومعه فيلق واحد . وهاهو مورتييه تسرب من بين اصابعكم . فاين هذا النصر ؟

فاجابه اندريه :

ــ إذا اردت الجد ، فنحن على الاقل نستطيع ان نقول بلا مباهاة ان النتيجة افضل من نتيجة معركة (اولم) !

ــ لماذا لم تأسروا لنا واحدا على الأقل ، من هؤلاء الماريشالات .

ــ لأن كل شىء لم يتم على ما نتوقع ، والأمور ليست فى ساحة الوغى على نحو ما هى فى ساحة العرض وقد قلت لك اننا توقعنا ان نهاجم مؤخرة العدو فى السابعة صباحا ، ولكننا لم نصل قبل الخامسة مساء .

فقال بيليبين باسما :

ــ ولماذا لم تهاجموا فى السابعة صباحا ! ذلك ما كان ينبغى : ان تهجموا فى السابعة صباحا !

فقال الأمير اندريه بنفس اللهجة :

ــ ولماذا لم تفلحوا انتم فى اقناع بونابرت بالوسائل الدبلوماسية ان يترك جنوه وشأنها ؟

ــ اعرف انك تظنه امر ميسورا جدا ان تأسر المرشالات وانت جالس على الاريكة امام المدفأة . وهذا صحيح . ومع

هذا يظل السؤال قائما لماذا لم تأسروه . ولا ينبغى أن تدهش إذا كان جلالة الإمبراطور الملك المعظم فرنسيس ، شأنه شأن وزير الحرب ، ليس شديد الفرح بسبب نصركم هذا . بل اننى وانا مجرد سكرتير فى السفارة الروسية لا اشعر بضرورة اعلان الحبور بأن اعطى خادمى « فرانز تالر » اجازة يستمتع بها مع حبيبة قلبه .

ونظر بصراحة إلى الأمير اندريه وفجاة سمح للتجاعيد ان تختفى من جبهته . وقال بولكونسكى :

ــ الآن جاء دورى لاسألك « لماذا » يا فتاى العزيز واعترف لك انى لم افهم هذه المسألة ، ربما لأن هناك خفايا دبلوماسية تتجاوز ذهنى الكليل . ولكنى عاجز عن الفهم . ماك يخسر جيشا بأسره والارشيدوق فرديناند والارشيدوق كارل لا تصدر منهما حركة . ويرتكبان خطأ فى إثر خطأ . وكوتوزوف وحده يكسب نصرا حاسما ويحطم هيبة ان الفرنسيين لا يغلبون . ووزير الحرب لم يعن بمعرفة التفصيلات .

ــ لهذا السبب بالذات يافتاى العزيز تحية ومجدا للقيصر ولروسيا وللايمان ! كل هذا حسن جدا ، ولكن ما علاقتنا نحن البلاط النمساوى بانتصاراتكم ؟ جيئونا بأنباء طيبة عن نصر للارشيدوق كارل او فرديناند ــ فأى ارشيدوق منهما معادل للآخر كما تعلم ــ حتى ولو كان نصرا على فرقة مطافىء لبونابرت ، تجد الأمر مختلفا . وتطلق المدافع احتفالا اما نصركم هذا فتعذيب لنا ، كأنما قد فعلتموه بنا عمدا . الارشيدوق كارل لا يعمل شيئا ، والارشيدوق فرديناند يلطخ

نفسه بالعار ، وانتم تهجرون فيينا متخلين عن الدفاع عنها كأنكم تقولون ان الله معنا ، وليخلفكم الشيطان انتم وعاصمتكم .. وتضعون جنرالا كلنا نحبه — وهو شميدت — فى مسار رصاصة ، ثم تأتون كى تهنئونا على انتصاركم ! ... يجب أن تعترف انه ما من أنباء اشد اثارة للغيظ والسخط مما جئتم به ! وكأنكم فعلتم ذلك عمدا . ولكن بصرف النظر عن هذا ، لو انكم كسبتم نصرا مؤزرا فعلا ، ولو ان الارشيدوق كارل كسب نصرا ، لكان لهذا اثر بعيد على مسار الاحداث . لقد فات الأوان الآن ، بعد ان احتلت القوات الفرنسية فيينا .

— احتلتها ؟ فيينا احتلت ؟

— ليس هذا فحسب، بل أن بونابرت فى قصر شونبرون وعزيزنا الكونت اوربونا راحل كى يتلقى اوامره .

وشعر بولكونسكى — بعد اجهاد الرحلة وانطباعات الاستقبال ، ثم بعد الطعام الذى تناوله لتوه — انه غير قادر على استيعاب كل مغزى الكلمات التى سمعها الآن . واستطرد بيليبين :

— لقد كان الكونت لشتنفلز هنا هذا الصباح واطلعنى على خطاب يتضمن وصفا كاملا للعرض العسكرى الفرنسى فى فيينا .. وفيه الأمير ميرا وكل الآخرين ... فها انت ترى ان نصرك ليس مدعاة كبيرة للسرور والابتهاج ، وانه لا يمكن ان تستقبل بوصفك المنقذ لنا !

فقال الأمير اندريه وقد بدأ يدرك ان انباءه عن المعركة أمام كرمس قليلة الأهمية فعلا فى ضوء حدث خطير مثل الاستيلاء على عاصمة النمسا :

— الحقيقة انى لا ابالى بهذا كله على الاطلاق . ولكن كيف استولوا على فيينا ؟ وماذا عن جسرها وتحصيناتها الشهيرة والأمير اورسبرج ؟ فقد بلغنا ان هذا الأمير يدافع عن فيينا .

— الأمير أورسبرج معسكر فى ناحيتنا ويدافع عنا ، دفاعا عديم الاثر فيما اتصور ولكن فيينا على الجانب الآخر للنهر . كلا ! انهم لم يأخذوا الجسر واتمنى الا يأخذوه لانه ملغم وصدرت الأمور بنسفه ولولا هذا لكنا منذ زمن طويل فى جبال بوهيميا ، ولكنت انت وجيشك امضيتم ربع ساعة سيئة جدا بين نارين .

— ولكن هذا لا يعنى على كل حال ان الحملة قد انتهت.

— اما انا فاعتقد انها انتهت . وهذا ايضا اعتقاد كل الاقطاب هنا ، وان لم يتجاسروا على التصريح به . وسيكون الأمر كما قلت انا عند بداية الحملة ، وهو أن المسألة لن تحسم بنيرانكم أمام ديرنشتاين ، ولا بالبارود ، بل على يد من اخترعوه . والسؤال الوحيد هو عم سيتمخض اللقاء بين الإمبراطور الكسندر وملك بروسيا. فان دخلت بروسيا الحلف اجبروا النمسا وكانت هناك حرب ، وان لم تدخل الحلف فسيكون الموضوع الوحيد هو الاتفاق على المكان الذى تملى فيه شروط كامبو فورميو الجديدة .

وصاح الأمير اندريه فجاة جامعا قبضة يده الصغيرة ليدق بها المنضدة :

— ولكن ياله من عبقرى ! وما اسعد طالعه

فقال بيليبين مغضنا جبينه ايذانا بانه سيقول كلمة مأثورة :

— بونابرت ؟ بونابرت ؟ ومع هذا اظن انه ما دام يملى الآن ارادته على استراليا من شونبرون ، فمن الضرورى ان نتخلى عن النطق الإيطالى لاسمه ونتبع البدعة الجديدة فى هذا !

— دع المزاح جانبا . وقل لى اتعتقد حقا ان الحملة قد انتهت ؟

— سأقول لك ماذا اعتقد، ان النمسا قد جرى استغفالها، وهى لم تتعود هذا وستنتقم ! وقد جرى استغفالها فى المقام الاول لأن اقاليمها نهبت. (ويقال ان القوات المسلحة الروسية المقدسة تنهبها بقسوة) وجيشها دمر ، وعاصمتها سقطت ، وكل ذلك من اجل سواد عينى ملك سردينيا . ولذا يا فتاى العزيز تقول لى غريزتى بينى وبينك أننا كنا فريسة غفلة ، كما تحدثنى عن مفاوضات مع فرنسا ومقترحات سلام ، سلام سرى ، يعقد على انفراد :

— مستحيل ! فهذه خساسة .

فقال بيليبين تاركا الغضون تختفى من جبينه ، آية على أنه انتهى من هذا الموضوع :

— سيطلعنا الزمن على كل شىء .

ولما ذهب الأمير اندريه إلى الحجرة التى كانت قد اعدت له ورقد على الفرش النظيفة ، المحشوة بالريش ، والوسائد الدافئة المعطرة ، احس ان المعركة التى حمل انباءها بعيدة

عنه جدا . واستولت على انتباهه افكار الحلف البروسى وخيانة النمسا وانتصار بونابرت الجديد وموعد استقبال الإمبراطور له فى اليوم التالى . واغمض عينيه فجعلت اذناه ترنان بقصف المدافع وطلقات البنادق وقعقعة العجلات ، ورأى مرة اخرى طابور حملة البنادق وهم يركضون هابطين التل ، وسمع نيران الفرنسيين ، فأحس قلبه يدق ورأى نفسه يخب بجواده امام الصفوف مع شميدت ، والرصاص يئز من حوله فشعر بلذة الحياة المركزة التى لم يجربها منذ طفولته . واستيقظ . وقال لنفسه بابتسامة طفلية سعيدة : « اجل . كل هذا حدث ! » ثم غاص فى نوم الشباب العميق ...

- ١١ -

وفى اليوم التالى استيقظ متأخرا ، ولما استرجع انطباعات الماضى كان ابرز ما تذكره انه سوف يتم تقديمه للإمبراطور فرنسيس . وتذكر وزير الحرب، والياور المغرق فى الرسميات .. وبيليبين ، وحديث الليلة الماضية . وارتدى ثيابه الرسمية الكاملة للذهاب إلى البلاط ، وهى ملابس لم يرتدها منذ امد طويل ، وتوجه نشطا متلهفا إلى حجرة بيليبين وذراعه معلقة فى حمالة ، ووجد هناك اربعة من اعضاء السلك السياسى . وكان يعرف منهم الأمير ايبوليت كوراجين من سكرتارية السفارة ، وقدمه بيليبين إلى الآخرين .

وكان زوار بيليبين مجموعة من الشباب الاثرياء المرحين الراقين الأنيقين ، يكونون هنا — كما فى فيينا — زمرة على

حدة ، زعيمها بيليبين يقول دائما عندما يتكلم عنها «اصحابنا» ، وهى زمرة تكاد تقتصر على الدبلوماسيين ، ولها اهتماماتها — بمعزل عن الحرب والسياسة — التى تدور حول المجتمع الراقى والعلاقات مع نساء معينات والجانب الشكلى للخدمة . وقد كان استقبالهم للأمير اندريه وديا حارا ، باعتباره واحدا من زمرتهم (وهو شرف لا يمنحونه إلا للقلة القليلة) وعلى سبيل التهذيب وتذويب الثلج وجهوا إليه عدة اسئلة عن الجيش والمعركة ، ثم ارتد الحديث إلى سياق المزاح والثرثرة المفككة . وقال احدهم بمناسبة كارثة حدثت لزميل :

— ولكن اظرف ما فى الموضوع ان الوزير صارحه بأن تعيينه فى لندن ترقية وعليه ان يعده كذلك . ايمكنكم ان تتخيلوا سحنته فى هذه اللحظة ؟

— ولكن اسوأ ما فى الموضوع لم تعرفوه بعد . وسأفشى سر كوراجين — فهذا الدون جوان سيستفيد من هذه الكارثة ، يا له من مخلوق رهيب !

وكان الأمير ابيوليت مسترخيا فى مقعد ، وساقاه فوق ذراع الكرسى ، فضحك وقال :

— حدثنى عن هذا .

فتصايحت اصوات كثيرة ! « ايها الدون جوان ! ايها الثعبان ! » وقال بيليبين ملتفتا إلى الأمير اندريه :

— احسبك يا بولكونسكى لا تدرى ان كل فظائع الجيش الفرنسى (واكاد اقول الجيش الروسى) ليست شيئا بالقياس إلى انتصارات هذا الشاب فى اوساط السيدات .

فقال الأمير ابيوليت ، وهو يحملق من وراء نظارته فى ساقيه المرفوعتين :

— المرأة . . . رفيقة الرجل !

فقهقه بيليبين وسائر الزمرة ، محدقين فى ابيوليت . وادرك الأمير اندريه ان ابيوليت هذا (الذى لا يخفى عن نفسه انه كان يغار منه على زوجته) هو هدف سخرية هذه الزمرة . وقال بيليبين على حدة لبولكونسكى :

— لابد ان اتحفك باحدى طرف كوراجين . فهو عند عرض آرائه فى السياسة يتكلم بكل جد .

وجلس بجوار ابيوليت ، وغضن جبهته ، وبدا يتكلم معه عن السياسة ، ووقف الأمير اندريه والباقون حول هذين الاثنين . وشرع ابيوليت يتكلم وهو ينظر بجد اليهم جميعا :

— الوزارة فى برلين لا يمكن ان توافق على الحلف . . . افهمتم ؟ . . . ثم ان جلالة الإمبراطور لا يريد أن يتخلى عن مبدأ تحالفنا .

ثم قال للأمير اندريه وهو يتأبط ذراعه :

— تريث . انا لم اتم كلامى . اعتقد ان التدخل سيكون اقوى من عدم التدخل ، ورسالتنا فى ٢٨ من نوفمبر لا يمكن ان نعدها استثناء وهكذا سينتهى كل شىء .

واسقط ذراع بولكونسكى علامة على انه ختم كلامه . وقال بيليبين الذى تهدلت خصلة شعره الكثيفة من فرط تغضن حاجبيه سرورا :

ــ لقد عرفتك يا ديموستين بالحصاة التى تخفيها فى فمك الذهبى !

وضحك الجميع ، وكان ايبوليت اعلاهم ضحكا ٠ وان كان واضحا انه مكتئب فهو يتنفس بصعوبة ، ولكنه لم يستطع مغالبة هذه الضحكة الوحشية التى تشنجت بها معالم وجهه الجامد فى العادة . وقال بيليبين :

ــ ان بولكونسكى ايها السادة ضيفى هنا فى برين ، واريد ان اطلعه بقدر الامكان على كل مغريات حياتنا هنا ٠ ولو كنا فى فيينا لكان الأمر سهلا ميسورا ، اما هنا فى هذا الجحر المورافى القذر فالأمر اصعب . ولذا أرجوكم جميعا العون ، ويجب ان نمتعه فى برين . ستتكفل انت بالمسرح وانا سأتكفل بالمجتمع ، واما انت يا ايبوليت فتتكفل بالسيدات طبعا !

فقال احد افراد الزمرة وهو يلثم اطراف أصابعه :

ــ يجب ان نريه اميلى ! فهى لذيذة !

فقال بيليبين :

ــ وعلى وجه العموم يجب ان نحول هذا الرجل المتعطش للدماء إلى اهتمامات اكثر إنسانية !

وقال بولكونسكى وهو ينظر فى ساعته :

ــ لا استطيع ان استغل كرم ضيافتكم اكثر من هذا ايها السادة . فقد حان لى الآن ان انصرف .

ــ إلى اين ؟

ــ إلى الإمبراطور .

ــ اوه ! اوه ! اوه !

وقالت أصوات كثيرة :

ــ إلى اللقاء إذن يا بولكونسكى ! إلى اللقاء يا امير ! عد مبكرا فنحن معتمدون عليك .

وقال بيليبين وهو يصحب بولكونسكى إلى البهو :

اجتهد أن توفى انضباط القوات حقه ، وتركز على الإمداد والتموين اثناء الزحف ، عندما تتحدث إلى الإمبراطور.

فقال بولكونسكى باسما :

ــ كان هذا بودى ، ولكن احسبنى لا استطيع ذلك .

ــ تكلم بقدر الامكان عن هذا كله على كل حال . ان الإمبراطور يحب الاستقبالات ، ولكنه لا يحب ان يتكلم كثيرا ، بل ولا يستطيع الكلام ايضا كما سترى !

ــ ١٢ ــ

وفى الاستقبال الصباحى اكتفى الإمبراطور فرنسيس بالنظر بآمان فى وجه الأمير اندريه ، واومأ إليه براسه الطويل وهو واقف فى المكان الذى خصصوه له بين الضباط النمساويين ٠ ولكن بعد انتهاء حفل الاستقبال الجماعى ابلغ ياور المساء المنصرم بكل الروح الرسمية بولكونسكى رغبة الإمبراطور فى ان يستقبله بصفة خاصة . وقد استقبله الإمبراطور فرنسيس واقفا فى وسط الحجرة ٠ وادهش الأمير اندريه ان الإمبراطور قبل المحادثة بدا عليه الارتباك ، فلم يعرف ماذا يقول واحمر وجهه ، ثم قال له بسرعة :

— اخبرنى متى بدات المعركة .

واجابه الأمير اندريه . واعقبت هذا السؤال اسئلة اخرى فى نفس بساطته :

— هل كوتوزوف بخير ؟ ومنذ متى غادرت كريمس ؟

وما إلى ذلك . فقد كان الإمبراطور يتكلم وكان هدفه الوحيد أن يوجه عددا معينا من الأسئلة . وكانت إجاباتها — كما هو واضح جدا — لا تهمه اطلاقا . وساله الإمبراطور ايضا :

— فى اى ساعة بدات المعركة ؟

فأجابه الأمير اندريه وقد زادت لهفته على انتهاز الفرصة لتقديم وصف دقيق على النحو الذى اعده فى ذهنه لكل ما يعرفه ورآه بنفسه :

— لا يمكننى ان اعين لجلالتكم الساعة لتى بدات فيها المعركة فى الخطوط الامامية، ولكن القوات فى دورينشتاين، حيث كنت ، بدات الهجوم فى نحو الساعة السادسة مساء .

ولكن الإمبراطور ابتسم وقاطعه قائلا .

— كم ميلا ؟

— من اين إلى اين يا صاحب الجلالة ؟

— من دورينشتاين إلى كريمس .

— ثلاثة اميال ونصف يا صاحب الجلالة .

— وهل تخلى الفرنسيون عن الضفة اليسرى ؟

— بحسب رواية داورياتنا ، عبرت آخر قواتهم النهر على اطواف فى الليل .

— الديكم مؤن كافية فى كريمس ؟

— لم تقدم لنا المؤن بالقدر ...

فقاطعه الإمبراطور قائلا :

— وفى اى ساعة كان مصرع الجنرال شميدت ؟

— فى الساعة السابعة ، على ما اعتقد .

— فى الساعة السابعة ؟ كم هذا محزن ! محزن جدا !

وقال الإمبراطور إنه يشكره ، وانحنى . . وانسحب الأمير اندريه ، وعلى الفور احدق به رجال البلاط من كل جانب . ورأى فى كل وجه عيونا تفيض بالمودة وسمع اصواتا ودية توجه إليه الخطاب. ولامه ياور الأمس لعدم اقامته فى القصر، وعرض عليه ضيافته فى منزله الخاص . واقبل وزير الحرب وهنأه على نيله وسام ماريا تيريزا من الطبقة الثالثة ، الذى انعم الإمبراطور به عليه . . وتقدم امين الإمبراطورة فدعاه لمقابلة جلالتها ، وان الارشيدوقة ايضا راغبة فى رؤياه . ولم يدر ايهما يلبى ، ولبث بضع ثوان يحاول تجميع افكاره . ووضع السفير الروسى يده على كتفه وقاده إلى نافذة ، وبدا يتحدث إليه .

وعلى عكس توقعات بيليبين ، قوبلت الأنباء التى جاء بها بالابتهاج . ورتبت صلاة للشكر وانعم على كوتوزوف بالصليب الأكبر من نيشان ماريا تريزا ، واجزلت العطايا للجيش كله . وتلقى بولكونسكى الدعوات من كل جانب ،



فقال فرانز وهو يدحرج الحقيبة الكبيرة فوق العربة بشىء من الجهد :
ــ آه يا صاحب السعادة ! علينا أن ننتقل مرة أخرى إلى مكان أبعد .

وتعين عليه ان يقضى الصباح كله فى زيارة كبار الشخصيات فى الحكومة النمساوية . وبعد الفراغ من الزيارات عاد الأمير اندريه فى الخامسة مساء إلى بيت بيليبين ، وراح فى الطريق إلى هناك يدبج فى ذهنه خطابا إلى ابيه عن المعركة وعن استقباله فى برين . وامام درج بيت بيليبين راى عربة محملة إلى نصفها بأشياء ، وخرج « فرانز » خادم بيليبين من الباب ، وهو يجر وراءه بصعوبة حقيبة سفر كبيرة .

وقبل العودة إلى بيت بيليبين كان الامير اندريه قد ركب إلى مكتبة ليحصل على رصيد من الكتب للحملة ، وقضى هناك بعض الوقت . وسأل بولكونسكى فرانز :

ــ ما الخبر ؟

فقال فرانز وهو يدحرج الحقيبة الكبيرة فوق العربة بشىء من الجهد :

ــ آه يا صاحب السعادة ! علينا ان ننتقل مرة اخرى إلى مكان ابعد ، فالوغد قد عاد لتعقبنا مرة اخرى !

ــ ماذا تقول ؟

وخرج بيليبين لاستقبال بولكونسكى وقد بدت على وجهه الهادىء فى العادة إمارات الاثارة وقال :

ــ لا . لا ! عليك ان تعترف بأن هذا ضرب من السحر ! اعنى قصة جسر تابور . فقد عبروه من غير ان يطلقوا طلقة واحدة .

ولم يفهم الأمير اندريه شيئا ، فقال بيليبين :

ــ من اين اتيت ما دمت لا تعرف ما يعرفه الآن كل حوذى فى المدينة ؟

— انا آت من عند الارشيدوقة . ولم اسمع شيئا هناك .

— او لم تر بعينك ان كل إنســــان يجمع امتعته فى كل مكان .

فسأله الأمير أندريه نافد الصبر :

— لم أر شيئا . . . ولكن ما الموضوع ؟

— ما الموضوع ؟ الموضوع ان الفرنسيين عبروا الجسر الذى كان يدافع عنه آور سبرج ، ولم ينسفوا الجسر ، وهكذا تجد « مورا » قائد الفرنسيين يجرى الآن بكل سرعــة على الطريق إلى برين ، وسيكونون هنا اليوم او غدا !

— هنا ؟ ولكن كيف لم ننسف الجسر ، مع انه كان ملغما ؟

— هذا ما اسألك عنه ! ولا احـــد ، حتى ولا بونابرت نفسه يعرف الجواب !

وهز بيليبين كتفيه وقال أندريه :

— ولكنهم ما داموا عبــروا الجسر ، فالجيش مقضى عليه ، وسيتم تطويقه !

— هذا هو لباب الأمر كله . اسمع ! الفرنسيون دخلوا فيينا ، وهذا مصدر رضاهم الكامل ، وفي اليوم التالى ، اى بالأمس ، امتطى المارشالات « مورا » « ولان » ، « وبليار » صــهوات جيــادهم وركبوا إلى الجسر (ولاحظ ان ثلاثتهم جسكونيون !) ولعل احدهم قال لصاحبيه : « تعرفان ان جسر تابور جرى تلغيمه وتحميه تحصينات هائلة وقوات تبلغ خمسة عشر الفا لديهم أوامر بنسف الجسر كيلا نمر . فلنذهب نحن الثلاثة ونستولى عليه !» فقال الآخرين : «هيا بنا ؟» وانطلقوا

واستولوا على الجسر وعبروه ، وصار جيشهم كله على هذه الضفة من الدانوب ، وهاهم يتجهون إلينا مباشرة ، ويقطعون كل مواصلاتك !

فقال الأمير اندريه بجد حزين :

— دع المزاح !

فقد احزنت هذه الأنباء اندريه ، بيد أنها فى الوقت نفسه سرته ! فما ان سمع ان الجيش الروسى صار فى هــذا الوضع اليائس ، حتى خطر له انه الشخص الذى اختارته الاقــدار لاستنقاذ الجيش الروسى من هذا الوضع ، وانه قـد حانت معركة تولون التى سترفعه من بين صفوف الضباط المغمورين، وتفتح أمامه الطريق إلى المجد ! وجعل يفكر وهو يصــغى لبيليبين فى كيفية الوصول إلى الجيش ، حيث يدلى فى مجلس الحرب بالرأى الوحيد الذى يمكن ان ينقــذ الجيش ، وكيف سيعهد إليه وحده بتنفيذ الخطة ، وقال مرة اخرى :

— دع المزاح !

فاستطرد بيليبين :

— لست مازحا. ولا يمكن ان يكون شىء اصدق ولا ادعى للحزن من هذا الذى حدث . فقد تقدم اولئك السادة الثلاثة إلى الجسر وحدهم وهم يلوحون بمناديل بيضاء . واعلنوا انه قد عقدت هدنة ، وانهم مارشالات وقد حضروا للتفاوض مع الأمير آور سبرج . وسمح لهم الضابط المنوب بالدخول إلى راس الجسر ، وهنــاك سردوا له الف خزعبلة جسكونية . قالوا إن الحرب قد انتهت وان الإمبراطور فرنسيس قد رتب

لقاء مع بونابرت وانهم حضروا لمقابلة الأمير اور سبرج وما إلى ذلك . وبعث الضابط إلى اور سبرج ، فى حين اخذ هؤلاء السادة الجسكونيون يعانقون الضباط ويطلقون النكات ، وهم جلوس على المدافع ، فى حين تقدمت كتيبة فرنسية خلسة على الجسر ورمت اكياس المواد المشتعلة فى النهر ثم زحفوا إلى راس الجسر . واخيرا ظهر قائد برتبة فريق ، وهو اميرنا العزيز آور سبرج فون ماوترن ، فهتفوا به : « يا عدوى العزيز ! يا زهر الفروسية النمساوية ! ويا بطل حرب الاتراك! لقد انتهى القتال، ولنا الآن ان نتصافح.. والإمبراطور نابليون يتحرق شوقا للتعرف إلى الأمير آور سبرج. وباختصار استطاع هؤلاء السادة الثلاثة الجسكونيون ان يبلغوا آور سبرج بالكلمات المعسولة ؛ وقد ارضى غروره ان يجد نفسه فى هذه العلاقة الحميمة مع المارشالات الفرنسيين ، وازاغت عينيه زخارف عباءاتهم ، وريش النعام فى قلنسوة « مورا » فازاغوا بصيرته وجعلوه ينسى انه كان عليه ان يطلق نيرانه على الاعداء . وجرت كتيبة فرنسية إلى راس الجسر وعطلوا فوهات المدافع بالمسامير الكبيرة ، وتم الاستيلاء على الجسر . ولكن ابدع ما فى هذه الحكاية كلها ان الرقيب الذى كان مكلفا باعطاء الاشارة لاطلاق النار ونسف الالغام ، عندما راى القوات الفرنسية تجرى إلى الجسر اراد ان يطلق النار ، ولكن المارشال «لان» جذب ذراعه ، غير ان الرقيب الذى يبدو انه كان اذكى من جنراله جرى إلى آور وقال : « يا امير ! انهم يخدعونك ! ها هم الفرنسيون ! » وادرك « مورا » ان اللعبة ستكشف إذا هو ترك هذا الرقيب يتم كلامه ، فتصنع الدهشة

البالغة (اليس جسكونيا حقا ؟ !) وخاطب آور سبرج قائلا : « هذا هو الانضباط النمساوى الذى يطريه العالم اجمع ! انترك رجلا وضيع الرتبة يكلمك هكذا ؟ » وكانت ضربة معلم ! فقد احس الأمير اور سبرج ان كرامته جرحت وامر بالقبض على الرقيب فى الحال ! ... ولكن عليك ان تعترف يا امير أندريه ان كل هذه الحكاية عن جسر تابور بديعة ، فلا هى غباء ، ولا هى جبن ...

فقال الأمير اندريه مصورا لنفسه المعاطف الرمادية والجراح والدخان وصوت النيران والمجد الذى ينتظره :

ـ بل لعلها الخيانة !

ـ ولا هذه ايضا ! وها هو البلاط فى مأزق فظيع ، انها ليست الغباوة ، ولا الجبن ، ولا الخيانة .. فالحال كما جرى فى (اولم) شىء ينفرد به ماك .

وغضن حاجبيه ، ثم ترك الغضون تنبسط بسرعة علامة على رضاه عن نفسه لابتداع هذا التعبير ، وانصرف بابتسامة باهتة لتفحص اظافر يده ثم فجأة التفت إلى الأمير اندريه الذى كان قد نهض ليذهب إلى حجرته :

ـ إلى اين ؟

ـ لا بد ان ارحل .

ـ إلى اين ؟

ـ إلى الجيش !

ـ ولكنك كنت تنوى أن تقضى هنا يومين آخرين .

ـ اما الآن فانا راحل على الفور ...

وبعد بضع كلمات متعلقـــة بترتيبات رحلته ذهب إلى حجرته . فلحق به بيليبين فى حجرته وقال له :

ـ أتدرى يا فتاى العزيز انى كنت افكر فيك . لمـــاذا انت ذاهب ؟

ودعما لحججه حول هذا الموضوع اختفت كل الغضون من وجهه . فنظر إليه الأمير اندريه متسائلا ولم يجب .

ـ لماذا تذهب ؟ انا اعلم انك ترى واجبك ان تسرع إلى الجيش، وقد صار الجيش الآن فى خطر . انهم هذا يا فتاى ، فهذه هى البطولة .

فقال الأمير اندريه :

ـ ليس فى الأمر شىء من هذا .

ـ ولكنك فيلسوف . فكن فيلسوفا بالكامل ، وانظـــر إلى الأمور من الجانب الآخـــر وستـــرى ان واجبك ـ على العكس ـ ان تحافظ على نفسك ، ودع ذلك للآخرين الذين لا يصلحون لأى شىء آخر .. وانت لم تتلق امرا بالعودة ، ولم يؤذن لك فى الانصراف من هنا ، فلك إذن أن تبقى وتذهب معنا إلى حيث يذهب بنا حظنا العاثر . يقولون انهم ذاهبون إلى اولمتز وهى بلدة ساحرة جدا ، ويمكننا ان نرحل إلى هناك بكل راحة فى مركبتى .

ـ حسبك مزاحا يا بلبيبن !

ـ بل انا اكلمك باخلاص كصديق . فكر اين تذهب ولأى هدف ، فى حين انه يمكنك البقاء هنا . وأمامك بديلان ، فاما انك

لن تصل إلى الجيش قبل عقد الصلح ، او تشارك كل جيش كوتوزوف فى الهزيمة والعار !

فقال الأمير اندريه ببرود :

ـ لا يمكننى الدخول فى هذه التفصيلات .

وقال فى نفسه :

ـ انى ذاهب لانقاذ الجيش .

فقال بيليبين :

ـ يا عزيزى ، انت بطل !

———— ● ————

(انتهـــى الجـــزء الثـــانى من ملحمـــة (الحرب والسلام) ،ويليه الجزء الثالث)

رقم الإيداع : ٤٣٧٩
٩٧٧ ـ ١٦٣ ـ ٠٨٠ ـ ٦



مطبوعات كتابى

إصـــدار جـــديد

عزيزى القارئ ..

فى الكتاب السابق ، الذى قرأت فيه الجزء الأول من أول ترجمة « مصرية » كاملة أمينة لهذه الرواية الرومانسية التاريخية الخالدة التى ترجمت من قبل إلى جميع لغات العالم الحية ، عشت معى فى صحبة أبطالها من سكان (موسكو) خلال حقبة غزو نابليون الفاشل لروسيا .. عشت مع « ناتاشا روستوف » ، الابنة الحسناء لإحدى عائلات موسكو العريقة .. ومع شقيقها الأكبر « نيقولاى روستوف » ، ومع الأمير الروسى الثرى « اندريه بولكونسكى » ، وأخته الأميرة «ماريا بولكونسكى» ، ووالدهما المستبد الأمير المسن «بولكونسكى» .. ثم عايشت بقية أبطال الرواية : «كوتوزوف» ، القائد الأعلى للجيش الروسى منذ أغسطس ١٩١٢ .. وغريمه القائد الفرنسى الغازى «نابليون بونابرت» .. ثم الشاب «بيير بيزوهوف» الابن غير الشرعى «لكونت» من أثرياء موسكو ، وزوجته الحسناء المنحلة الخلق «ايلين كوراجين بيزوهوف» ، وشقيقها «اناتول» .. الخ .

واليوم ، فى هذا الجزء الثانى من الرواية الخالدة ، نتابع معايشة هؤلاء الأبطال جميعًا ، فى ظل الحرب الضروس التى شنها «بعبع» أوربا يومئذ «نابليون بونابرت» على وطنهم ، وهى الحرب التى خيم ظلها المخيف على مختلف نواحى حياتهم !

حلمى مراد

١٠٠ قرش